



# الاستغفار في القسرة

عباس محمود العفاد



المستوان: الإنسان في القرآن.

المؤلف: عباس محمود العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الرابعة سبتمبر 2005م .

رقم الإيداع: 2003/ 20998

التسجيل الدولي: ISBN 977-14-2557-9

الإدارة العامة للنشر: 21 شر أحمد عرابي - المهندس - الجيزة  
ت: 0234466434 - 023472964 فاكس: 023446576 س.ب: 21 إسماعيلية  
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: [publinfo@enahda.com](mailto:publinfo@enahda.com)

الطبع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - حيوة - الجيزة  
ت: 023472964 - 023472969 - 023472966 فاكس: 023472966  
البريد الإلكتروني للطبع: [press@nahdaeditor.com](mailto:press@nahdaeditor.com)

مركز التوزيع الرئيسي: 11 شر كامل صدقي - القجالة -  
القجالة - ص.ب: 96 القجالة - القجالة  
ت: 023472964 - 023472969 - 023472966 فاكس: 023472966

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني  
0800234722  
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: [sales@nahdaeditor.com](mailto:sales@nahdaeditor.com)

مركز التوزيع بالإسكندرية: 404 طريق الحرية (رشدى)  
ت: 023472964

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع سيد السلام - عمارق  
ت: 023472964

[www.nahdaeditor.com](http://www.nahdaeditor.com)

[www.nahda.com](http://www.nahda.com)

موقع الشركة على الإنترنت

موقع البيع على الإنترنت



الطبعة والنشر والتوزيع

ش.م.أ. أحمد محمد إبراهيم حدة ٢٠١٥

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)  
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع  
[www.enahda.com](http://www.enahda.com)

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تضمين أي جزء من هذا الكتاب بآية وسيلة  
إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



إِنْسَانُ الْقُرْآنِ  
وَإِنْسَانُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ

## تمهيد

إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين ، ولعل مكانه في هذا القرن أوفق وأوتق من أمكنته في كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه في الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التي يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمي إليها ، كما أُلجأ إلى ذلك كله هذا القرن العشرون . . . قديما كان الحكماء يجعلون شعارهم في نصيحة الإنسان : « اعرف نفسك ! » .

ولأنها نصيحة قد ترادف سؤالهم : من أنت ؟ أو سؤالهم : ما اسمك ؟ غير أن الإنسان إذا أجابه قائما يجيبه باسم « باطنى » يعرفه بعلامح وجدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عند تعريفه بالاسم الذى يختار اعتسافا من بضعة حروف . . .

وهو على أية حال سؤال إلى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون في الحجرة الواحدة ويحيون عليه عشرين جوابا متفرقات . . .

وقديما كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقى سؤاله : فيهلك من لم يعرف جوابه . . . وكان سؤالا عن الحيوان الذى يتشى على أربع في الصباح ، وعلى اثنتين عند الظهيرة ، وعلى ثلاث عند المساء . . . فكان سؤالهم لغزا من ألغاز الأقدمين عن الإنسان في أطوار عمره ، بين الطفل الذى يحب على أربع ، والفتى الذى يعتكف على قلمين ، والشيخ الذى يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الإنسان كله . . . لا تبعد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين الهلاك فيه والنجاة . . .

إلا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالا عن نسبة من نسب الإنسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد يكون هلاكا للجسد والروح . . .

ما مكان الإنسان من الكون كله ؟

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ . . .

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ؟ أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان « الإنسان » . . . .  
وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للإنسان صفوة عرفاته  
بدينه و صفوة إيمانه بنبيها المجهول . . . تجمع له زينة الثقة بعقله ، وزينة الثقة  
بالحياة . . حياته وحياة سائر الأحياء والأشكال . .

إن القرن العشرين كان حقيقا أن يسمى بعصر « الأيديولوجية » أو عصر الحياة  
« على مبدأ رعية » لأنه كلما أتى على الإنسان سؤال من أسئلته تلك لم يعف عنه  
جوابه ، ولم يسلمه إلى جزاء أهون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه . . فإن يكن  
سكوتا عن الأجوبة جميعا فهو الهلاك المصدق بالأبدان والعقول .

وليس أكثر من « المبادئ والعقائد » التى نسمع عنها فى هذا القرن . ويسمونها  
بالمذاهب و « الأيديولوجيات » .

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر الذى  
يحل المشكلة الزمنية ولا يتعدها إلى مشكلة الأبد : مشكلة ما مضى وما أتى من  
الدهر وما يأتى إلى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الدينية التى تؤمن  
بها الإنسانية ، فلا يغنى فيها إيمان فرد واحد بينه وبين ضميره ، أو جواب سؤال  
واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصارك  
إنك واحد منها بين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيبعثون ، ولا يسكتون عن  
تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم ولا لك إن سكتوا عليها .

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغي أن توجد ، وإنما الضلالة فىمن يريد على  
غير مواثيقها الذى تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه .

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتبذل غدا ، ولا توجد على الأيام للماضين  
دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ، ولمن يطلبون الخير للناس دون من يطلبون  
الخير لأنفسهم ، ولمن يعتقدون دراية وحبية دون من يعتقدون تسليما ورهبة ، ولمن  
يسعون سعيهم إلى العلم والإيمان دون من يقعدون فى مواطنهم متظرين ، وقد

يقعدون وهم يجهلون إنهم قاعدون ، لا يعلمون ما الخير وما المتظفر ؟ إن علموا أنهم متظفرون ! . .

هذه العقيدة بنية حية ، قواسمها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير إليها ، وسيلها جميعا أن تهدي إلى قبلة واحدة : تنظر إليها فتضي قدما ، أو تفقدها في الأفق فهي أشلاء مزرقة ، كأنها أشلاء الجسم المثلود بين مفارق الطريق . .

إن القرن العشرين ، منذ مطلع ، يمرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان وعلى الإنسانية ، ولا تعلم إنه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها في كل معترك زبون ، يوم خلدتهم كل قوة يعتصم بها الناس .

• • •

ونحن ندعى في هذه الصفحات أن النصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة في الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم ، وإن القرن العشرين سينتهي بما استحدث من مبادئ ومذاهب و « إيديولوجيات » ولا ينهى ما تعلمه أهل القرآن من القرآن . .

وإن أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيشعرون أحسنه إذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التي يروجها دعايتها باسم المادية ، أو الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بها أن تكون على الزمن بدلا من العقائد الإلمية ، ومن عقائد الغيب الذي يحسبونه معدوما أو موجودا كمعبرم .

وقد استمع الناس إلى المادية التاريخية ، فقالت لهم إن الإنسان عملة « اقتصادية » في سوق الصناعة والتجارة ، تلو وتنهبط في طبقاتها بمجاري العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الإنسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية ،



فقلت لها إنها شيء لا وجود له مع طوائفها التي تحفظها الأسعار والأجور .  
واستمع الناس إلى الفاشية فقلت لهم إن الإنسان واحد من عنصر ميد أو عنصر  
مسود ، وإن أبناء الإنسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك  
عبد للسيد المختار ، بغير اختيار .

واستمع الناس إلى « العقلية » فقال لهم قائل منها إن « إنسانيتهم » كذلك شيء  
لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وإن الشيء الموجود حقا هو الفرد  
الواحد . . . وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما أمن  
المغية من سائر الأفراد والأحداث . . |

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية عن مكان هذا الإنسان من  
الأرض والسماء ، ومكانه من إخوته في آدم وحواء .

« سمعوا إنه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، يتجوس شطره بمقدار ما يهلك شطره ،  
ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء . .

وسمعوا إنه إنسانان . . إنسان صحيح مقبول ، وإنسان زائف مدخول . .  
صحيح مقبول كل من اجتباها مولاة على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه  
وتفاه ، ولمه لم يخلقه ودعاه إليه من دعاه .

وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب  
بكفارة غيره ، ويمضي بين النعمة واللعة بقدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من  
عصيان أو طاعة ، ومن إباء أو اختيار .

وسمعوا من القرآن غير ذلك ، فهم متديرون يستمعون إلى العقل كما يسمعون إلى  
الإيمان إذا اطمأنوا ولبثوا على أطمئنائهم إليه . .

الإنسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله . . يدين  
بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار  
والأسماع .

و : الإنسانية : من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتى سيئا ، وصدق النية فيها أحسنه واتقاه .

• • •

وفي الصفحات التالية كتابان في كتاب وجيز . . . نبدأهما بعقيدة القرآن فتعيد هذه الكلمات القلائل في صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الإنسان في مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الخدس والخيال ، ولا نزيد في سردنا على الالمام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان أو يؤخذ بالإيمان عن حقيقة الإنسان .

الكتاب الأول

الإنسان في القرءان

## المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغى المحاريب إلى عقائد الرشد والهداية لا جرم كان «المخلوق المسئول» صفوه جميع الصفات التي تذكرها القرآن عن الإنسان ، إما حصة بالتكليف أو عامة في مدرج الحمد والندم من طباخه وعمله . .

ولقد ذكر الإنسان في القرآن بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة فلا يعنى ذلك إنه يحمد ويذم في آن واحد ، وإنما معناه به أهل للذكاء والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل مهيا ، فهو أهل للتجبر والشر ، لأنه أهل للتكافؤ

والإنسان مسئول عن عمله - فردا وجماعة - لا يؤخذ واحد بورر واحد ، ولا أمة بورر أمة !

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ سورة الطور آية ١٢١

﴿ يَلِكْ اُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ مِمَّا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كُنْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة البقرة آية ١٣٤

• • •

أما مناهج المسئولية في القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتعلق إليه فقه المباحين عن حكمة التشريع لدى أو التشريع في الموضوع

فهو بمصوص الكتب قدومة على أركانها الخمسة : تليج ، وعلم ، وعمل . فلا نحى التبعة على أحد لم تبعه الدعوة في مسائل العيب ومسائل الإيمان :

﴿ وَلِكُلِّ اُمَّةٍ رَّسُولٌ فَلَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُلْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

سورة يونس آية ٤٧

• • •

﴿وَأَن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ سورة فاطر آية ٢٤

• • •

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ سورة الاسراء آية ١٥

• • •

أما العلم من أول آية في الكتاب تلقاه صاحب الدعوة الإسلامية ، كانت أمرا بالقراءة وتوبى يعلم الله وعلم الإنسان

﴿أَفَرَأَوْ رَبِّكَ الْأَكْرَمُ ④ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ⑤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ سورة العلق ٣-٤

رأون فافع في خلق الإنسان ، كانت فاتحة العلم الذي تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات .

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أُبَيِّضُوا بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑥ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ سورة البقرة آية ٣٢

• • •

وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتحليل الذي تسعه طاقة المكلف ، وبالسعي الذي يسعه لربه ولنفسه

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ سورة البقرة آية ٢٨٦

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ سورة النجم آية ٣٩

﴿فَنَزَعْنَا مِنَّا ذُرَّةً خَيْرًا رِّمَ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً خَيْرًا يَرَهُ﴾ سورة الزلزلة ٧ - ٨

ورسل اسلاخ هـ أول المكلفين بالعلم والعمل ، أنهم جميعا أمة واحدة هي  
 « الأمة الإنسانية » ولهم جميعا إله واحد هو رب العالمين .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾  
 وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

سورة المؤمن ٥١ - ٥٢

• • •

وهي ذكر فيه الإنسان من آيات الكتاب وصف له ، وهو في الذروة من الكمال  
 المقدور له بما استعد له من لتكليف ، ووصف به وهو في يدرك الأسفل من لحظة  
 التي يسقط إليها هذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من  
 نصوص الأمر والهي ، والعظة والتذكير والثواب والعقاب

فالإيمان أكرم الخلائق هذا لاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض ،  
 من ذي حياة أو غير ذي حياة

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا نَبِيَّ آدَمَ وَحَمَلْنَاهُ فِي الْغَبْرِ وَآَلَيْنَاهُ الْأَنْحَامَ ﴿١٧﴾  
 وَكُنَّا نُقَدِّمُ الْفُلُوكَ لَهَا خَلْقًا مُفَضَّلًا ﴾

سورة الأعراف ١٧

• • •

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾

سورة التين آية ١

﴿ نَحْنُ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ ﴿٢﴾

سورة لقمان آية ٢٢١

﴿ تَنْفِرَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿٣﴾

سورة الحج آية ٢٥

• • •

وبكته ينفرد بين الخلائق بمساوي لا يوصف بها غيره ، لأن الميثة والحسنة  
 على السواء لا يوصف بها مخلوق غير مستنوب .

فهد مخلوق مستول بوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والنجس  
والخسران والهجور والكود ، لأنه دون غيره أهل للابتدأ والاعتد والرجحان  
والعفاف

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَفَّارٌ ﴾ سورة براهم ١٣١

• • •

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَفَّارٌ ﴾ سورة العنق ١٧

• • •

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَفَّارٌ ﴾ سورة العصر آية ١٦

• • •

﴿ نَلَّا يُرِيدُ الْإِنْسَانَ لِيَفْعَلُ أَثْمًا ﴾ سورة القيامة آية ١٥

• • •

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَفَّارٌ ﴾ سورة العاديات آية ١٦

• • •

وقد يذكر بالصلين في الآية الواحدة كما جاء في قوله تعالى

﴿ نَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ثُمَّ رَدَّدَتْ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿

سورة التين ١ - ١٥

ونقرأ في بعض التفسير أن أسفل سافلين هو أردل نعر ، وهو يقتضي أن يكون  
« أحسن تقويم » هو تقويم الطفل الوليد .

ونقرأ في غيرها أن أسفل سافلين هي الحميم ، فيكون لزما أن الحمة هي  
المنقصودة بأحسن تقويم .

وفهم لكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الطاهرة لاعمال قوام الإنسان ،  
وليس بجمال خلق وحده مرتبطا بعبدال القوام ، بل تربط به لقدرة على العمل

والإرادة ، وهي قدرة لم يحف علاقتها بصورته الطاهرة قل عصر التشريع والعلم  
بوظائف الأعضاء ، الذي أثبت العلاقة الضرورية بين اعتدال القامة وجهاز النطق في  
الرأس والعنق وعمود الظهر وساير البدن ، ثم راد الناس عنها بما يعيه التقويم الحسن  
من فضائل العقل واحسد ومن مزيا المطنة والجمال .

وإما المعنى الموافق لساتر معاني الآيات ، أن الجمع بين التقيصين في الإنسان  
ينصرف إلى وصف واحد ، وهو وصف الاستعداد الذي يجعله أهلا للترقى إلى  
أحسن تقويم وأهلا للتدهور إلى أسفل سافلين .

على أن الآيات التي قصر فيها القول على خلق جسد الإنسان ، لم تحل مما يرحى  
إلى المصنوق المسئول أن أطوار حقه السوى بمعداد له هو أشرف من حدته الحيوانية ،  
وبرهان من براهين التبليغ برسالة الحب ، عسى أن ينظر في الخلق يرى فيه آثار الخالق  
الذي لا تدركه الأبصار والأسباع .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٧ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقًا فِي أَمْرٍ  
مَكِينٍ ۝١٨ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا  
فَكَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْناُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

سورة المؤمنون ١٦ - ١٨

• • •

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ  
خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٢ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِمَّا تُمَثَّلُونَ ۝٣  
ثُمَّ رَوَّاهُ وَقَحَّ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ ۝٤ ﴾

سورة السجدة ٦ - ٩

• • •

﴿ وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَشْتَرُونَ ﴾

سورة الزم آية ١٢

• • •



﴿ نَحْنُ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِنْ شَيْءٍ آخَرَ لَا يَعْبُرُونَ عَنِ طَرْفِ نَافِثٍ ﴾

«سورة يس آية ٣٢»

﴿ لَا يَعْبُرُونَ ﴾

ولا يسأل الإنسان عما يحفل ، ولكنه يسأل عما علم وعي وسعه أن يعلم ، وما من شيء في عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب عنه عن علم للإنسان ، قد وسعه من علم فهو محاسن عليه

## الكائن المكلف

القرآن كتاب تسبيح وإقناع وتبيين ، وقوام هذه القضية فيه هذا التوافق الثام بين أركانه وأحكامه . وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتربل فيه بأقداره ، ويتوافق في تعصبه بمآثر أركانه التي تم به أو يتم بها على قدر معين .

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بتكليف ، وبين تحديد العقل في هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف لعقل ، وكل وظيفة من وظائفه في الحياة الإنسانية .

وخيق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتسه إلى هذه القضية التي تحسب لأرب وهمة كأنها شيء من الواقع البديهي لا يحتاج إلى تنبيه ، ولكن حاجته إلى التنبيه إنما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين حملة من الكتب الدنسة الكبرى ، في فصيلة التبليغ المقصود ، ونعني به التبليغ الذي يراد ويتناسب فيه إبان على حسب الأحكام والأركان .

في كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم دين كله ويرتبط بها نجاة الإنسان من هلاك أو ضياعه في هادوية الفتنة واسعة ، ثم تبحث عن هذه الأركان في كتاب الدين فإذا هي معروضة فيه بين السطور ، يحيطها المفسرون إلى حكم القرينة ، ويجوز لمن شاء أن يحسبها من مصادقات القول يتساوى السكوت عنها والنس عليها . مثل هذا لا يعرف في حكم من أحكام الكتاب المبين ولا في ركن من أركانه ، من المعروف فيه عن نقيض ذلك أن تبينه عن قدر فرضته وأن التوافق به على أتمه بين الأركان التي تلازم وتتكامل ، عن بيان مقدر لا محل فيه لفرض المصادفة ، بل لا محل فيه لتجاهل المقصد مع رسالة من رسالات التسبيح

مكان الإنسان في القرآن الكريم هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة وفي ميزان الفكر وفي ميزان الخلقة الذي توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات .

## هو الكائن المكلف

هو كائن أصوب في التعريف من قول القائلين « لكائن الناطق » وأشرف في التقدير . .

هو كائن أصوب في التعريف من الملك اعاط ومن الحيوان الصاعد ، وأشرف في التقدير من هذا وذلك .

ليس الكائن الناطق شيء ، إذ لم يكن هذا اسطق أهلاً لأمانة التكليف وليس لذلك المذهب منزلة تهدي إلى طريق لصعود أو طريق لهبوط ، وليس لحيوان الصاعد بمرلة انفصل بين ما كان عليه وما صار إليه ، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال في طريق الارتفاع .

إنما الكائن المكلف شيء محدود بين الخلق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح في الحقيقة موضوع في موضعه لمكين بالقياس إلى كل ما عداه .

أي شيء أصعب من هذه الخاصة المحكمة ينصرد بها القرآن بين تعريفات الفلسفة وتعرفات الدعوة الدينية .

ب عجيبة لا تدفع عجبها إلا أنها تجري على سبيلها من تبليغ الكتاب المبين ، بها عجيبة لم تأت من مصادفات التصميم والتحمين ، لأن الكتاب الذي مير الإنسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذي مثلاً بخطاب « بعقل » بكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عزمها به العمل والمتعمقون ، قبل أن يصبح بعقل « درسا » يتقصاه الدارسون كتباً وعملاً ، وأثراً في دأخله وفي خروجه ، وفيها يصدر منه وما يشول إليه

لعقل وازرع « بعقل » صاحبه عما يأنه له التكليف .

لعقل فهم وفكر يتقلب في رجوه الأشياء وفي يوحى الأمور

لعقل رشد يميز بين الهدية والصلال . .

العقل روية وتدير .

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار

والعقل ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر ، وتجمع العبرة لما كان لما يكون ،  
وتحفظ ونعى وتبدئ وتعيد . .

والعقل بكل هذه المعاني موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر  
بمعروف ، وكل شيء من محظور . .

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس معكم رجل  
رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يباط بها التكليف حجة على المكلفين فيما  
يعيبهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم ، وخالق  
الأرض والسماء ، لأنهم :

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ مَا خَلَقَتْ هَذَا بَطُلًا ﴾

سورة آل عمران آية ١٩٩ .

. . .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَحَلَّ مُسَمًّى ﴾

سورة الرعد ٤٨ .

وقد نقل تكايف القرآن جميعا ، ونقل عظمته جميعا إذا أردنا الشواهد على  
هذا التوافق الموصول بين تمييز الإنسان بالتكليف في القرآن وبين خطابه للعقل  
والفكر ، وتذكيره بالرشد والبصر وسائر ملكات التمييز في مصطلحات الأوائل  
والأواخر ، ولكنها شواهد حاضرة في ذهن كل قارئ هذا الكتاب ، وكل قادر على  
المقابلة سه و بين غيره من كتب الأديان ، ولو لم يعبر بها غير مصصحات معلودات .

ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ في هذا الكتاب أن الأمر فيه يجري على هذه  
السنن ، فيما أتى به فريدا غير مسبوق من رسالة البوء . .

إها الرسالة التي لم تعرف قط في التاريخ البشرى قبل تمييز الإنسان بحاصة التكليف وإعدادة لخطاب العقل وبيئات لاقتاع .

كانت الأمم - قبل النعمة المحمدية - تعلم أن النبوة استطلاع للعب وكشف للاصرار والمهيات ، يستعان بها على رد الصائغ وإعادة المعروق أو الدلالة عليه ، ويستخبروها عن طوابع الخير والشر ومقدير السعد والنعوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده لتشفع إليه بالهدايا والفرايين ، وكانوا يطلبون وساطة الأبياء دفعا للوارث التي يستحقونها وترد بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقفه الصالحون العارفون ، ويسألون المعبود في دفعه قبل نزوله . فجاءت نبوة الإسلام بمحمد باق لم تسبق به سابقة في الدعوات الدنية ، بل لا حاجة بعده إلى جديد ولا استطاعة لتجديد ، لأنه يخاطب في الإنسان صفته البقية وحاصته الملازمة ، وهي خاصة انفس الناطقة بين عامة الأحياء ، أو خاصة الضمير المسئول الذي يحمل نبعته ولا تغيب عنها شفاعته ولا كفايته من سواء .

هي نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجم . . وهي نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست نبوة خوارق وأحوال ترويح البصر والبصيرة وترويح الصنائع بالتحريف والارهاب حيث يعيها قبول الاقتناع .

إها نبوة مشرة منيرة لا تملك لهم نعمًا ولا صرا ، ولا تعمل لهم عملا غير ما يعملونه لأنفسهم عشتهم إذا اعتدوا بهداية العقل المتدير والمصمير السليم .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَعْمًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ عَظِيمًا لَآتَيْتُكُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَىٰ أَلْوَنُ ۚ إِنَّ شَاءَ اللَّهِ لَا يُدْرِي أَفْقَرٌ يُّؤْمِنُونَ ﴾  
سورة الاحزاب آية ١٨٨ .

لهم . . ولا إغراء ولا مساومة على جزاء بين الأشد والعطاء :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ تَكْرِيهُنَّ مِنْ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ أُنْزِلَ وَلَا أَقُولُ تَكْرِيهُنَّ مِنْكَ ۚ إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾  
سورة الانعام آية ١٨١ .

ولقد جاءت جمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس ، فظن الناس أنها كسفت لموته ، وأبى النبي الصادق أن يسكت عليهما ، فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر يتان لا تحسبان لموت أحد ولا حيته وقد بين للناس أن المعجزة لا تجس من يكابر العقل وبأبى الأصعاء إلى بينات الإقناع .

﴿ رَلَوْ فَتَحَّ عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۚ ﴿١١﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتٌ مِّمَّنَّاءِ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْجُورُونَ ﴾  
سورة الحجر ١١ - ١٥

ولقد تقدمت نبوة الإسلام دعوت كثيرة ، من أكبر لدعوات شأن في تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ لم يستطع أن يختم دور النبوة في تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأن ، لأن جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد في أذهان الناس فكرة الإنسانية البصنة وفكرة الإنسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والفهم .

موت بن إسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تنزل بها خبرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم . وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء إبراهيم بالروح في عداد أبنائه باحسد ، وبكنه أدى رسالته وبقى الإنسان بعده محتاجا أشد الحاجة إلى رسالة تحمسه من الاعتماد على غيره في الحياة من أوارده والتكبر عن سيئاته والتهوض بتيغات صلاحه ونزوة روحه ، ومن تفرغ أمانة النبوة في تاريخ الإنسانية قل أن يوجد الإنسان الذي يحاط بحضرة العقل ومحاسب بحسابه ، ويحمل تبعاته على حقيقته ويشترك على سواء بينه وبين إخوانه من البشر في عبادة إله واحد ، هو رب العالمين ، وليس بالرب الذي يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بمفصل م تفصله ، وحساب لم تصعه في عوارضها بعمل يمينها .

فما جاءت نبوة التكليف ، صح في حكم العقل أن تحتكم بها النبوة لأب حاضرة في كل وقت يحضره الإنسان العاقل المسئول ، وتحمسه آيات الله لقوم يعقون

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاحِ الَّتِي تَحْرِي  
فِي السَّحَابِ مَا بَعَثَ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَرَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ  
مَوْنِهَا وَمَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ الْفَلَاحِ  
وَالْأَرْضِ لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾  
سورة البقرة ١٦٤

• • •

إن قيام البوة على إقناع العقل المسئول بآيات لكون ، قد اختتم سلطان الأحرار  
والقادة كما اختتم سلطان البهوات بالمعجرات وخوارق العادات ، فلا يعجز الإسلام  
عن أن يعلل عقله لطبيع السادة المسكربين أو يطبع الأحرار المستطيين سلطان  
المال والدين :

﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَعِّفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ رَحْمَةً لِّلَّهِ وَاسِعَةً  
فَتَهَاجَرُوا فِيهَا﴾  
سورة السجدة ١٩٧ .

• • •

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا الْحَنُ صَدَقْتُمْ عَنْ أَهْدَى بَعْدَ  
هَذَا مَا كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ﴾  
سورة سبا ١٣٦ .

• • •

﴿يَتَأَيَّسُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ كَثُرَ مِنَ الْآخِسَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ  
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾  
سورة التوبة ١٣٤ .

• • •

﴿أَتَعْبُدُونَ أَجْبَارَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ أَوْ بَابًا مِنْ دُورِ اللَّهِ﴾  
سورة التوبة ١٣١ .

• • •

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكّين بعبدان الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم إن كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحضّر واجب التكليف ولا يعطله أو يغيّره ، ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَعْلَمُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾  
 سورة النحل آية ٦٤٣

فقد سمى ختام النبوة باسمه الحق في تاريخ الإنسان ، فاسمه الحق أنه هو فاتحة عهد لرشد في حياة الإنسانية الخالدة ، قبل عهد الرشد الذي أخرجه القرون الوسطى بسبعة قرون

ومن عبث الجهالة أن يفهم هذه الميقات الخيل فهم العقول الصغار ، فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، ونسمع من يفسره في « عصر العلم » فلا يفهم منه إلا أنه « حكر » الأثرة يغلّفه النبي عن من بعده ، ويسبق هذا السخف وهو صورة لا تقل التصور عن هذا البني ، كيما تصوره انظر إليه على حقيقته أو على دعواه . فهذا « الحكر » صيغ لا يصنعها نبي أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهله بين سلطان العيب عن نفسه ، ويعتد سمعة المعجزة عن دعوته . وهي طمعة مفادة بين يديه . . فإن جار في حقه هذا « الحكر » المتعصب ، فهل يجوز في حقه أن يختص به من لله وأن يأمر تكذيب الله إياه ، وقدرته على إغلاف دعواه ؟

إن احتام النبوة لا يفهم هذا الفهم الصغير في عقل يطبق أن يدرك الواقع من أمر دعوة عظيمة ولا شأن عظيم ، ولو كان احتكار النبوة بدعت النبي إلى دعواه لما دخل فيها ذهاب سلطان الأحبار والولاة ، ولا دخل بها ادعاء النبوة أصلاً وهي لا تحول أنبي ، ولا مدعى النبوة أن يحجب انصيب المجهول من مشيئة الله .

ولكن الإيمان بالعقل المسئول ، هو الباحث بين الذي يفسر ما لم يفسره صغار العقول من احتام النبوة واحتام الكهانة واحتام سلطان الحاكمين على الصغبروان انتظامه كله على هذه السمة المتعة هو الآية الناطقة بإرادة الله .



## رُوحٌ وَجَسَدٌ

عقيدة الروح إحدى العقائد الغيبية في القرآن . . والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس الدين ، تقوم عليه كل ديانة بطعن إليها صمير الإنسان ، ولكن الغضبية الأولى في عقائد القرآن الغيبية أنها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تعطل التكليف بحضاب العقل المستول ، وهو يؤدي حق التمييز وحق الإيمان والإسلام . إسلام الأمر كله إلى الخالق المعبود . .

وعقيدة الروح إحدى العقائد العسبة ، التي نلمس فيها هذه الغضبية ، كأنها من حقائق النفس وإن وجب على العقل الانساني أن يؤمن بعمله القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الإيمان بأنها من علم الله . .

ذلك بأن الإيمان بالروح ، لم يمرض على العقل ابشري في القرآن الكريم نقيصة من النقاظ التي تشطره بين ضدين متدايرين ، ولم يفهم النفس البشرية بقاصم من الحيرة بين الخفتين : حلقة الإنسان روحا مجهول القوام ، وجسدا معروفا المطلب والغايات ، محسوس الذات والآلام .

فالروح والجسد في القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية ، تم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما في سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحسد منه الاسراف في مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك . . وعلى الله قصد السبيل .

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما يهي عن إباحة المحرم :

﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لَا تَحْرِمُوْا طَيِّبٰتِ مَآ۟ءٍ حَلٰلٍ ۤاَللّٰهُ لَكُرْ وَلَا تَعْتَدُوْا اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ ۝۸۷ وَكُلُوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ حَلٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِيْۤ اُنْتُمْ بِهٖ مُّؤْمِنُوْنَ ۝۸۸ ﴾

سورة المائدة آية ٨٧ - ٨٨ .

ولقد آتاكم القرآن يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صمغ يده ، وأن ينفق منها  
غير مسرف في إنفاقه ، وأن يسم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة  
مشكورة لا يحل له أن يحسبها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا مِن طَبِيبَتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْحَأَكُمُ  
مِّنَ الْأَرْضِ ﴾

سورة البقرة ١٧٧ .

• • •

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَبِيبَتِ مَا رَزَقَكُمُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ لِيَّاهُ  
تَعْبُدُونَ ﴾

سورة الفرقان آية ٢٩٧ .

• • •

ومن تمكن الإنسان في الأرض أن يشغى فيها معيشته ويسم فيها عطشته ، وأن  
يتعدى بها زيتها ، ويتم بها عدته ، ولا يزهد في شيء من خيراتها يخرجها لنفسه أو  
تخرجها له الأرض من فضل ربه :

﴿ وَالْحَبَلُ وَالْأَنْعَالُ وَالْحَمِيرُ يَرْكَبُهَا وَبِئْسَ مَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَعَلَى اللَّهِ  
قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِمَّا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَتَمَّ مِمَّا هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ مِنْ أَمْرِهِ  
مَاءً لَّكُمْ مِمَّا شَرَبْتُمْ وَمِنْهُ تَخْرِقُهُ بُسْبُومٌ يَخْتَلُجُ بِهِ الرِّيشُ وَالرِّيشُ وَالْحَبَلُ  
وَالْأَنْعَالُ وَمِمَّا كَلِمَاتُ النَّسْرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

سورة الحنث آية ٨ - ١١ .

• • •

بل لزيينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدنيا ومطالب المعيشة ، والخطاب في  
هذا موجه إل بني آدم لأنه نعمة مرضية من نعم للإنسانية ، ومن تمييز الله هذه  
الإنسان على سائر الحيوان :

﴿ يٰٓعٰدِىٓٓءَ اٰدَمَ حَدُوْا رِيْمَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا ۚ اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ۝۳۱﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِي اُخْرِجَ لِعِبَادِهِ ۚ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ ﴿

سورة الاعراف آية ٣١ ٣٢

• • •

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّكُمْ فِى الْاَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيْهَا مَعٰيِشًا ۚ ۝۱۱۰﴾

سورة الاعراف آية ١١٠

• • •

فهو من تمكين بنى آدم بين خلائق الله ، وهو من حى المعيشة الأرضية وواجب الحياة الدنيوية ، لا تناقص فيه بين روح وجسد ، ولا تنازع فيه بين دني وآخره ، ولا فساد فيه للذات الإنسانية يحار فيه العقل وتتمرق به أرواح الضمير وقوامه فى خطاب لتلجج للإنسان من بنى آدم كافة :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتٰكَ اللّٰهُ الدّٰرَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۚ ۝۷۷﴾

سورة القصص آية ٧٧

• • •

فلس السعى فى سبيل الدنيا صلالا عن سبيل الآخرة ، وليس فى القرآن فساد بين روح وجسد ، أو اشتقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات فى العقيدة يورع « الذات الإنسانية » بين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة . بل هى العقيدة على هداية واحدة تحبس بالروح كي تحبس بالجسد ، فى غير إسراف ولا جور عن السبيل :

﴿ وَمِمَّ مَّا رَزَقْنٰكُمْ تَدْمِنُوْنَ ۝۹﴾ (سورة النحل آية ٩)

فى القرآن الكريم هذا الإلهام لصدوق ، ينقل العن من مغانص التفكير ، ولا يحجب من نقائص التكليف وحسد ، أو من نقائص الخيرة بين العللين فى حقائق الدين ، ولا مزيد .

فمن ضلال التفكير قدما ، أنه ساق كبار العقول إلى ذلك الفاصل المحتسب بين  
عالم النور والظلمة الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى . .

كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كثر وذنس ،  
وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا  
يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم النور .

وعلى مثل هذا الانخفاض ، المسلم به بين النور والتراب ، وبين الجوهر  
والعرض ، قد دار كل ما دار قدما وحديثا - في الدين والعلم - من عزل أصيل بين  
الصفاء والكثرة ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد ، وبين النقيضين من  
النور والظلام . .

إن هذا الاعتساف في التفرق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قد عطل العقل  
زمتا طويلا عن فهم حقائق الحس ، كما عطله ولا يزال يحطله عن فهم حقائق  
التكليف وحقائق الأديان .

إن العقل ليحلم اليوم أن ذرات التراب ودرات الضياء ، من معدن واحد ، وأن  
الحجر اليابس يتفتت فإذا هو شعاع ، وأن الشعاع انشطلق ويتعقد ويتقابل فإذا هو  
حجر ، وأن الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك  
كذلك في خفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الإيمان . .

لماذا يقول العالمون باللهة من « المؤمنين » بالمادة دون الروح ؟

ماذا يقولون عن عقل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الضياء ؟  
سيقولون عندما ما قال به قارئ الكذب إيمانا حين قيل له عن الروح سمع  
وصدق وقلبه مطمئن بالإيمان .

﴿ تِلْكَ أَرْوَاحٌ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

سورة الاسراء آية ٨٥ .

## النفس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تشب في الكون . .

وتكلموا عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تشب إلى الإنسان . . ورتبوها على حسب صفاتها وعلو جواهرها ، فكان العقل عندهم أوطأ وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله حل شأنه ، والعقل الإلهي هو العقل الفعال *Postikos* المنزه عن المادة والهيولى ، وعنه يصدر العقل الإنساني أو العقل المنعزل *Pothetikos* ثم تأتي الروح والنفس بعد ذلك في الصفاء والشرف . . فصدرهم أن الروح أقرب إلى عنصر النور ، وأن النفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب ، ويقول أتباع أفلاطون أن العقل الإلهي فيض من صدر عنه « النفس » ومنه صدر ما دونه من الموجودات على ترتيب شرفها وصفاتها ، وهم يذكرون النفس بصيغة المذكر ويتابعهم في ذلك من كتبوا بالعربية وتابعوهم في مذاهبهم الصوفية . .

والروح أربع من النفس في درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر حكماء اليونان ، فمنهم من ينسب النفس إلى الكائنات العنصرية جميعا ومنها كل نبات يسمى ويد ويوصف ببعض صفات الأحياء ، فمعنى النفس عندهم على هذه الصفة مرادف بمعنى « الحركة الحيوية » أو معنى القوة التي تجعل أعضاء الجسم الحي مخالفة للأجسام المادية في قابلية النمو والتوابع ، ونصيبها من الإرادة أكبر من نصيب الجسد وأصغر من نصيب الروح ، فإنها لا تملك الانتقال من المكان لذي هي فيه .

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف والصفاء ، ولاسدن له نصيبه من العقل . . ولكنه دون لعقل الفعال في جوهره وتنزهه عن المادة والهيولى وله روح يعلو به على سائر الموجودات ، ونفس قد يقترب بها من الكائنات التي تنمو وتلد وتزيد على حركات .

إن هذا الاختلاف بين هذه القوى في مصطلح الحكمة اليونانية ، وفي لغة  
، يكتب لمن ، يقاس من ناحية في كثافة المادة ويقاس من ناحية في المثل الأعلى ،  
وهو الله .

ونقد يقاس الكمال في مصطلح حكمة اليهودية إلى الجوهر بمقدار ارتفاعه ، وإلى  
المادة أو الميولي بمقدار هبوطه

ولكن كمال هذه القوى في لغة القرآن مقبوس في كمال الله جل شأنه فأرفعها  
وأشرفها ما كان أقرب إلى الصمد عليه وأدناها وأحقها ما كان أبعد من تلك  
الصمدات

ومن المقضية بين هذه القوى ، كما ذكرت في الكتاب المنبر ، قد نسين أن  
« الروح » هو أقرب إلى حياة الباقية وأحفاها عن اندارك الحسية ، وأنه الجانب  
الذي متأثر الله بعلمه واحتجب عن أسيانه ، لأنه سر وجود المطلق لا قدرة  
للعقل الإنساني المحدود على الإحاطة به ووعيه ، إلا بما ياسبه من الإشارة والتقريب .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(سورة الإسراء ٨٥)

أما العقل والنفس في بيان القرآن الكريم ، فالراجح أن النفس أقربها إلى لطمع  
أو القوة الحيوية التي تشمل إرادة كما تشتمل الغريزة ، وتعمل واعية كما تعمل غير  
واعية ، وتأتي في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التي يدركها البوم ،  
والقوة التي يزدهقها لقل ، والقوة التي تحبس الحمة والعداوت وتلهم انفجور  
والتقوى ، وتحبس على ما تعمل من حسنة وسيئة فهي نقوة التي تعمل وتريد ،  
مهيمنة هدى العقل أو منفادة سورع الطمع والطمع ، وترصعها المواريس القسط  
يوم القيامة .

﴿ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَإِنِّي لَأَكْتُمُ فِي مَنَامِهَا ﴾

« سورة الزمر آية ٤٢ »

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾

سورة الانعام آية ٦٠

وإذا ذكر قتل النفس « في القرآن » ، فهي هو قتل الإنسان أو لناس عن حسب الخطاب إلى الفرد أو الجماعة :

﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ قَدَرٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

سورة المائدة آية ٣٢

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

سورة النساء آية ٢٩

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ ﴾

سورة النور آية ٨٥

ولكن الإنسان أعم من النفس لأنه مشمول أن يبه .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّأَ نَفْسَهُ خَشَعَتِ أَسْمَاعُ الْغُلُوبِ وَهُوَ آخِذٌ بِذُرِّيَّتِهِ ﴾

سورة النازعات آية ١٠-١١

النَّاسُ

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هي « لذات الإنسانية » تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » في حالة من حالاتها ، ولا تتعدد « لذات الإنسانية » بأية صورة من صور تعدد لأها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فإنما هي إنسان واحد في جميع هذه الحالات ، وهي تعبرت عنها في جميع لغات تفصي بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أفعالها ولا تدرك مصادرها ، وعن هذا الحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعي بسب إليها من وعي « طلي ووعى ظاهري » ومن صميم ووجدان « خيالي وحافظة وبديهي » روية إلى غير هذه الأسماء التي تتعدد للتعبير بين الأعمد ، وإن لم تتعدد في مصادرها معلوم أو مجهول .

وقد ذكرت النفس في القرآن بجميع قواها التي يدرسها اليوم علماء النفس  
لتخصصون هذه الدراسات في موضوعاتها الحديثة .

ف قوة الدوافع الغريزية تقابل النفس « الأمانة بالسوء » .

﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ سورة يوسف آية ٥٣ .

وقوة النفس الوعية تقابل النفس اللهية .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿١﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٢﴾ قَدْ أَفْحَحَ مِنْ

رَغْوَاهَا ﴿٣﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ سورة النيس آية ٧ - ١٠ .

وقوة الصميم تقابل النفس للرامة ، وهي النفس التي يقع بها الحساب كما يقع  
عليها ، وحاء ذكرها من أجل ذلك مقروبا بيوم القيامة :

﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْقَوَامَةَ ﴾

سورة القيامة آية ١ - ٢ .

ثم ذكرت موصوفة بالانصار والعلم بمواقع الاعذار .

﴿ نَلِّ الْأِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةً ﴿١﴾ وَوَالَّذِينَ مَعَادِرُهُ ﴾

سورة القيامة آية ١٤ - ١٥ .

وقوة الإيمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴾

سورة الفجر آية ٢٧ - ٢٨ .

وفي كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى .

فتجمعها خاصة واحدة هي خاصة الانسان في القرآن ، وهما كما تقدم خاصة

الكائن المكلف المسئول

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِبَةٌ ﴿٢٨﴾ ﴾



﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ أَنْفِطَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾

سورة الانبياء آية ١١٧

﴿ يَوْمَ تُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ سورة الن عبرا آية ١٣٠

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ② وَإِذَا

الْبَحَارُ جُفِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلَتْ نَفْسٌ مَقْشَطَةً وَاحِرَتْ ⑤

بِأَيِّهَا الْإِنْسُ مَا عَمَرَكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ أَلَيْسَ خَلْقُكَ فَسَوْنَكَ فَصَلِّكَ ⑦

فِي أَيِّ صُورَةٍ مَسَاءَ رَكَّكَ ⑧ سورة الانفطار آية ١ ١٨

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوحَ ① وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُتِ ② بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ③

وَإِذَا الشَّعْفُ ثُبِرَتْ ④ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑤ وَإِذَا الْحَجِجُ سُيِّرَتْ ⑥

وَإِذَا الْحِجَّةُ أُرِيفَتْ ⑦ عَلَتْ نَفْسٌ مَخْضَرَتْ ⑧ سورة التكوير آية ٧ ١١٤

وجملة ما قيل في معنى « النفوس روجت » أنها تقول بمقوماتها وأعمالها أو تنضم إلى

أشباهها وقرنائها

محساب النفس من حساب الإنسان ، ولكن الدات الإنسانية أعم من النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل من على حدة ، فإن الإنسان يحاسب نفسه ليسهاها عن هوها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذي لا يعلم الإنسان عنه ، لا ما علمه الله ، ويتوسط الفصل بين القويين فهو وارع العريرة ومستبهم هداية الروح .

ولعنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى في الدات الإنسانية ، وعمل كل

مها في القيم بالتكليف وتغيير الإنسان منزلة الكائنات استلزم ..

فالإنسان يعبر على نفسه بعقله ، ويعبر عن عقله بروحه ، فيتصل من جانب

النفس بقوى العواثر الحيوانية ودوام الحياة الحسنة ويتصل من جانب الروح

بعدم انقضاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله وحق العقل أن يدرك ما وسعه من

حاجبها المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المعنى إلا بإيمان وإلهام



الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أعلق عثمان باب الكعبة وصعد  
 اسطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال «و علمت أنه رسول الله لم أسمع» فلو  
 عنى من أبى طالب رضى الله عنه يده وحده منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وصلى ركعتين فلما خرج سأله لعاس أن يعطيه المفتاح ويجمع به اسقاية  
 والسنة ، فنزلت الآية ، فأمر علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقد عثمان  
 لعلى «أكرهت وأديت ثم حثت برفق ؟» فقد «لقد أرسل الله في شأنك قرآناً»  
 وقرأ عن الآية فقد عثمان . «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول  
 الله...»

ومضى الإمام الرضا ع في تفسير الآية إلى أن قال «وفيل هو خطاب لولاه  
 بأداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقرىء الأمانة عن التوحيد»  
 وفي الحلالين أن الآية «وإن وردت على سبب خاص فعمومها معتبر بقريته  
 الجمع»

ويقول الأستاذ الإمام لشيخ محمد عبده «إن الظاهر أنها نزلت قبل فتح مكة  
 وأن النبي عليه السلام تلاها استشهاده»

ومن تفسيرات المتأخرين تفسير الجواهر لشيخ طهطاوى جوهرى يقول إن الأمانة  
 «كل ما يؤتمن عليه من قلوب ، أو أعمال ، أو أموال ، أو عجم ، وبالحملة كل ما يكون  
 عند الإنسان من لم يلقى تهيد نفسه وغيره» وإن خطاب موجه إلى الناس عامة  
 وإلى الحكام وولاة الأمور

وكذلك الأمانات والعهد فيما ورد في سورة المؤمنين :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ سورة المؤمنون آية ٨

ههنا يشمل كل ما يرعاه الإنسان من عهد ودية وهذا هو معنى الأمانات في  
 سورة الأنعام ، ومعنى هذا المعنى إجمالاً - بهم كل مبلغ خوفاً به الناس  
 عامة وإن نزلت به الآيات لمسة خاصة

أما لأمانة التي عرضت على الخلق عامة ، فحملها الإنسان ولم يحملها أحد من

حقيقه ، فهي أعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامة بالسعة في أحكام التبيين ، لأن الأمر فيها أمر التكوين والاستعداد بالمطررة التي فطر عيب العقول وغير العقول وستعد لها الحى وغير الحى ، والمخاطب بالتبليغ وغير المخاطب . وروى هذا الموضع من القرآن الكريم ذكرت هذه لفطرة مقررة بمطررة الخيفة كلها ، وذكرت معها صفة الاسنان التي تخص بين عامة المخلوقات حين يتقبل أعضائها وعملها ، وما كان ليحملها إلا أن يتعرض لتعانيها فهو مظلوم جهول مظلوم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها ، وعنده أمانة العقل التي تهدبه إلى عملها . وما من كائن غير الكائن العاقل يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف أحد الذى يتعداه ولا ساطع به معرفة الحدود . وروى يوصف بالظلم والجهل من يصح أن يوصف بالعدل والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريد في الحالين

قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾  
 سورة الأحزاب آية ٧٢

وذكرت هذه المطرة الانسانية في موضع آخر من الكتاب ، مع ذكر تكريم الاسنان وولايته رمام الكائنات مفصلا على كثير من المصنفات ، فقال تعالى في سورة الاسراء

﴿ وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي أَنْفِهِمُ الْوَحْيَ وَالْخُرُوجَ مِنْ أَرْحَامِهِمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَعَلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّا نَسُوا حَلْفًا نَاصِيًا ﴾  
 سورة الاسراء آية ١٧٠

« وكثير من حلفنا » في هذه الآية تشمل كل محسوق لم يكن أهلا لأمانة الخير والشر أو لأمانة التكليف ، كما أودع فيه من فطرة التكوين

• • •

وقد وضع معنى « الأمانة » في هذا الحكم العام وصوحا لا يقلل انفس أو

الانحراف بأنهم عن جوهره المقصود ، وهو التكليف . فمن يذكره من المفسرين  
بنصه ، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته ، وهي ملازمة له لا تنفك عنه ..

وهذه أمثلة من أقوال المفسرين الذين ساءوا الرواية بالمعنى الذى فهم من  
كلمة الأمانة منذ صدر الاسلام إلى القرن الرابع عشر للهجرة

قال الامام الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ للهجرة ، يريد بالأمانة الطاعة معطمة  
أمره ومحرر شأنها ، ويراد بها الطاعة لأنها لازمة الوجود كي أن الأمانة لازمة الأداء ،  
وعرضها على المحامدات ويؤده وإشعافها محارز ، وما حمل الأمانة من موك ، فلان  
حاصل للأمانة أو محتمل ها ، ترد أنه لا يؤدها إلى صاحبها حتى تروى عن دمه  
ويخرج من عهاتها .

وقال ابن مسعود الفخر الرازي المتوفى سنة ست وستائة للهجرة ، إنا عرضنا  
الأمانة ، أى التكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ، وأعلم أن هذا الحرج من  
التكليف ليس فى السموات ولا فى الأرض لأن الأرض والحبل والسماء كلها على ما  
خلقت حية . الجبل لا يطلب منه السير ، والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من  
السماء الهبوط . ولا فى الملائكة ، لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين بهن عن أشياء  
لكن ذلك هم كالأكل والشرب لنا ، فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتمل  
الإنسان بأمر موافق لطبعه .

قال الإمام العليشوف فى تفسير حمل الأمانة . « لم يكن يؤدها كإهداء وليس فى  
قوله تعالى : « أى أن يكون مع الصالحين » من رحمة أحدهم أن هذا سبحانه  
كان فرضا ، وما هذا الأمانة كانت عرضا ، وثانيهما أن الإتياء كان هذا استكبارا وهذا  
هنا استصعابا . استصعبروا أنفسهم . بسبيل قوله تعالى : « وشقق من » وقال  
بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين . مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من  
يدرك الكل ويجزئ مثل آدمي . ومنه من يدرك جزئى كالإنسان يدرك أشبه لى  
تأكله ولا تفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين . ومنه من يدرك  
الكل ولا يدرك الجزئى كالملاك يدرك الكسوف ولا يدرك لذة الخمر والأكل . قدوا

وبلى هذا . ثار الله تعالى بقوته . « ثم عرّضهم على ثلاثكة فقال أسئلي بأسماء هؤلاء » فاعتروا بعدم علمهم بتلك الخزيات ، والتكليف م يكن إلا على مدرك لأمرين . إذ له لدات بأمر حرية فنع بها لتحصيل لدات حقيقه هي مثل لدة ثلاثكة بعبادة الله ومعرفة . وأما غيره فإن كان مكلف يكون مكلفا لا بمعنى الأمرى به عليهم كلفة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب . فإن الخطاب يسمى مكلفا كما أن الخطاب مكلف ... » .

وقال الإمام ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة « عن ابن عباس . يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم إنى قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والحبال فلم يطقها . فهل أنت آتخذها فيها ؟ قال . يارب . ومى فيها ؟ قال . إن أحسنت جريت وإن أسأت عوقبت . فأحدهم آدم فتحملها .. وقال على بن أبى طهحه عن ابن عباس - الأمانة الفرائض . عرضها الله على السماوات والأرض والحبال ، ال أدوها أثابهم وإن ضيعوها علبهم ففكروها ذلك وأشمقوا من غير معصية . ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها

« قال مجاهد وسعيد بن جبير والخمس المصرى وغير واحد أن الأمانة هي الفرائض . ثم أورد الإمام ابن كثير أقوالا أخرى مروية بأسماء أصحابها . وعقب عليها قائلا إنها كلها - لا تثنى بيبا . بل هي متفقة ورجعة إلى أبا التكليف وقبول لأوامر والنواهى بشرطها »

• • •

وحاء فى تفسير الإمام السيوطى المتوفى سنة ٩١١ للهجرة . « إن عرضنا الأمانة ، الصلوات وغيرها . من فعلها له الثواب ومن تركها عليه العقاب »

وقال الإمام محمد جواد الدين القاسمى المتوفى سنة ١٣٣٢ للهجرة

« .. غير عيب بالأمانة تسبها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى للمكلفين .

و شتمهم عليها . وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها ، ومحافظة عيها وأدائها من غير إحلال بشئ من حقوقها ، ومعنى الآية أن تلك الأمانة في عظم شأنها بحيث لو كلفت هاتك الأجرام بمطام التي هي مثل في القوة وشدة مراعاتها ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لأين قوط وأشقق منها أن قوته تعالى - وحميها الإنسان أي عند عريتها عليه ، وما باعتدتها ، بالأصافة إلى استعدادها ، أو تكليفه إياها يوم ايثاق أي تكليفها وتزيمها مع ما فيه من ضعف السية ورجاوة القوة ، وهو إما عبارة عن قبوله ما موحى استعدادها لفطري ، أو من اعتباره بقوله بلى .. وقوله تعالى إنه كان ظلوما جهولا اعتراض وسط بين الحمل وغايته بلإيدان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وعمله . أي إنه كان مقرط في صلح مدلعا في الجهل . أي بحسب عاب أفردده لدير م يعملوا بموجب فطرهم اسليحة .. »

• • •

وقل صاحب تفسير الخوازم ردة هذه المدة . ثم قل تفسير بصيرور مدى لمعى حمل الأمانة ، إد قاب ، فأين أن يحملها وحميها الإنسان ، أي أين أن يحيا وحيا الإنسان قال : والإنسان هنا هو الكافر والمناق »

• • •

ولا يحتم هذه المقترحات قبل أن يعود إلى الاستدراك الذي بدأنا به . وهو الاتفاق على معنى التكليف . وأن الاختلاف على المدة التي تترك عليه ، بما هو مدبل على معنى الاستعداد لفطري ممدام وما عداها ، أو على معنى وقوع في ادمية مجاورة حدود لتكليف ، علما مع العلم بها وجهلا مع لقدره على تتعلم والاسترشاد في أمرها

إلا أن معنى الاستعداد الفطري لا يخفى إذا رجعنا إلى الآيات التي ورد فيها ذكر صفات « الإنسان » بمعنى جنس الإنسان فونه يدكم هذه الصفات في موضع كثيرة مع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قوى الطبيعة . فقد ذكر تكريم بني آدم مع السطون على البحر والزرع والصرع والتحصيل على كثير من حلائق الله ، وذكر

طم الإنسان وجهه مع أفراد، بامطردة المستعدة لتكليف بين خلق سموات  
والأرض ، وذكرى غير هذين آيتين بقوة للحير والشر مع الإيمان بالخزاء والتذكير  
محقق أنيل والنهار وحيدات لأرض وحساب الأفلاك ، ومن ذلك وفيه الإشارة إلى  
أمنه عن الآيات :

﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْتُونَ الصَّلَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ اعْتَدَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ  
بِالْخَيْرِ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَةً ۚ فَالْحَرُونَ آيَةً  
الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً يَتَنَبَّهُونَ بِهَا مِنْ دُكَّانٍ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ  
وَالْحَبَابُ رُكُنٌ مِّنْهُ فَفَصَّلَتْهُ تَفْصِيلًا ۝ ﴾ سورة الاسراء آية ٩ - ١٢

فقد ذكرت هـ قصة الاستعداد للحير والشر مع ذكر الإيمان بالخزاء ونصريف  
الليل والنهار ، وعجلة الإنسان على حساب العواقب وهو أهل للحساب ، حساب  
الشاهد والغائب ، وحساب النور والظلام وحساب السنين والأيام



## التَّكْلِيفُ وَالْجُرَّةُ

من شروط التكليف طاعة وحرية . .

وهذه بديهية يعمل عنها كثير من المحدلين في قضية القدر ، وفي قضية الإيمان ، وفي قضية لتكليف والجزاء . فيقتصرون لنظر على شرط الحرية ويهملون شرط الطاعة كأنه منقصر للجزاء وكأنه من اللازم عقلاً أن يكون الجزاء مقرون بالحرية المطلقة ، وهي في ذاتها سحالة عقلية بكل احتمال يحطر على الدال في فهم حق لا سب . . فن بحث عن الإيمان بالكيف غير ناظر إلى شرط « طاعة » فلا حرم يصل عنه ولا يسهى فيه إلى قرار ، لأنه يبحث عن شيء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا عن الإيمان .

في القرآن حطاب متكرر إلى لعقل ، وبيان مكرر لحساب الإنسان العاقل على الخير والشر ، مع إمساد الإرادة إليه في استحقاقه بشواب واعقاب

وفي آيات صريحة بسد الإرادة إلى الله . ونقرر أنه - سبحانه وتعالى - هو الخالق المقدر لدى مصدر الهداية والصلاح ، ويعطى كل شيء حقه ويهديه وهي آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وإل م تبلى في الكثرة عند آيات الحطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والنظر والتفكير والتصكير .

• • •

﴿ تَهْدِي اللَّهُ الْبَلَدَ الْأَمْسَاءَ لِيَأْتِ أَهْلَهُمْ مِنْ أَلْحَقِ بِإِذْنِهِ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

سورة البقرة آية ٢١٣

• • •

﴿ قُلْ مَرَرْتُ بِالْقِسْطِ ۚ وَاقِيمُوا أَوْحَاءَكُمْ عِدَّةَ كُلِّ مَبْعَدٍ ۚ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۚ قُلْ قَرِيبٌ هُدًى وَبَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ ﴾

سورة الاعراف آية ٢٩ - ٣٠

﴿صَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي هُوَ مَوْجِدُ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝﴾

سورة الأعلى آية ١ - ٣

• • •

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا يَلْمِزُ قَوْمَهُ ۚ بِئْسَ هُمْ قَبِيضٌ ۝ اللَّهُ مِنْ بَيْنَا ۝ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۝ وَهُوَ أَنْعَرُ الْحَكِيمِ ۝﴾

سورة ابراهيم آية ٤

• • •

﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقُرْآنِ الْنَّازِلِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ وَيُصِلُ

اللَّهُ الْأَطْيَافَ ۚ وَيَعْمَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝﴾

سورة ابراهيم آية ٢٧

• • •

وكثرة الآيات هذه المعنى تبعد عن ذهن أن يكون فيها محذور لتأويل غير معناه الظاهر على اختلاف العبارة والمادة ، فمعناه انما هو ان لا تأويل فيه أن الله سبحانه وتعالى هو المصمم لما يريد الذي يحقق عباده ويخلق ما يشاء .

أقرب هذا تناقض في حكم العقل إذا نظرنا إلى الأمر كله نظرة المعتدل ولم يقصر النظر إلى النصوص ، أو إن واجب الاعتقاد يقتضي هذه النصوص ٢ .

إن الرجوع بالقضية إلى أسسها المحتملة على كل احتمال ، يبيح التناقض ، ويرى كيف يكون هذا الاعتقاد « حلاً لمشكلة » من أسسها المفروضة جميعاً ، وخروجاً من التناقض الذي يلزمها على كل احتمال غير هذا الاحتمال

ويكفي الإنسان روحاً وعقلاً خلقه الله ، أو يكن تركيباً عارضاً من تركيب المادة لم يخلقه أحد ، على قول المؤمنين بالمادة محدثة من الفكر والارادة .

ويكفي التكليف إرادة من عند الله أو يكن ضرورة من قضاء الواقع لا يرتبط بها أمر ولا جزاء .

فكيف تصور العقل إرادة الأساس على كل احتمال ٣

إله لا يتصورها إرادة مطلقة من جميع القيود . لأن إرادة إنسان واحد نطلق  
غير قيد هي قيد لكن بسبب سواء ، وكيف يأتي هذا الإنسان الواحد بل ذاته المصنقة  
منفردا بها بين أمثاله المقبلين ٩ .

ثم أن يوحد الناس جميعا بإرادة مطلقة لكن منهم على سواء ، فهذه هي  
الإحالة العقلية في العرض والتقدير قبل الوصول بها إلى الاتحاد والتحقيق .

فإذا كانت الإرادة المصنقة هي إرادة الله . فخلق الناس مكلفين بغير إرادة لهم  
شيء غير معقول وغير مقبول . لأن سقوط التكليف لا معنى له في هذه الحالة إلا أن  
خلق الناس جميعا متشابهين متماثلين متساويين في العمل الصالح الذي يستحق إليه .  
كما تساق الآلات ، فلا فصل إذن معقل على غير المعقل ، ولا يميز بالإنسان على  
المجرد المجرد عن الجنس ، فصلا عن الحيوان ..

فإذا وجب تكليف الإنسان ، فمعقل الإنسان لا يوجهه إلا كما ينبغي أن يوجب  
على حالة واحدة لا سواء . وهي حالة الإرادة المحفوفة بدفعها فيه الخلق كما ينبغي  
أن تودع ، وهي لا ينبغي أن تودع إلا على هذا العرض الذي يدعو إليه القرآن  
وحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغي أن تكون في احتمال العمل لمذكر  
المميز الذي يهتدي بإذن الله لما احتموا فيه

ولا يقف في حرية التي تخلق لبست بحرية . فإن الحرية غير القيد سواء كانت  
مخلوقة أو مطوعة ، وسواء كانت من عالم الروح أو من عالم المادة عند التمييز بينهما كما  
تباين قيمة المعدن نفيسا وغير نفيس . وكلاهما مخنوق أو مصروع ، فإن صحت الآلية  
نذهية والآلية الحسية لا يبنى معاسة لأولى ولا يسوى بين الآيتين المصروعين  
ويس في العقل شيء يسمى حرية مطوعة تدعو على الحرية المحفوفة بالانطلاق من  
جميع القيود لأن الانطلاق من جميع القيود غير معقول ، وغير موجود .

• • •

وإذا وجدت للمخلوقات العقلة حرية أو وجدت لها إرادة ، فليرجع إلى العقل  
سرى كيف يتصوره العقل أي عقل - وكيف تكون على احتمال واحد دون كل  
احتمال ..

إنها لا تكون سواء في كل إنسان ، لأنها إذا امتنع فيها خلاف القوة لم تمتنع فيها

خلاف لرمي ولعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف نصر والكبر ، ولا  
خلاف الحركة والحمود

وإذا امتنع فيها كل هذا الخلاف فليست هي بشيء ، إذ ليست اوجودات التي  
لم تمايز ولم تتوخ بأشياء يقبلها التصور ، بل هي عدم ينقطع عن الوجود . أو كائن لا  
تغير فيه ولا تكلف ولا حسنة ولا سيئة ، ولا ثوب ولا عقاب

إذ وجد المخلوق حراً إذ إرادة فلا وجود له ، لا بهذا الاختلاف في حكم العقل  
كغيرها كان حكم المخصوص

وإذا مضى العقل هذا دون سواء ، فالعقل هو الذي يتصور إرادة الله وإرادة  
الإنسان على احتمال واحد دون سواء ..

وحكم الإيمان هنا وحكم العقل مماثلان إذ كان كل ما عدا حرية « لا إيمان »  
فرضا غير معقول بل غير موجود

• • •

وبحسب هذا في حل من القول بكفاية العقل وحده تلقى حطاب التكيف إذ كان  
المؤمن والفيلسوف معا يذهبان ، لعقل بين نقائص لمروص . فلا يستقران على فرض  
يمكن أو صالح غير اعتماد لتكيف على العقل واعتماد العقل على الأيمان

والإنكار الخراف يوقع العقل في تقيصير ، وهو تعطيل للعقل أفصل به من كل  
تعطيل

ولما تساور الحيرة في مسائل الأيمان عامة من حفظاً شائع بوجه أوسع من  
المثديين والمنكرين أد الأيمان عن الدوم تسليم بما يأباه العقل وما يتقنه إذا  
تفله وهو منمنض العين مكتوف اليد ، يتساوى منه لظرو وترك الطر ، بلا جهد  
ولا محاولة ولا موازنة بين ما حير وما يمتنع كل لامتنع

هذا إيمان يلقي العقل ويلقي به بعيد إل طرف للتصديق غير سؤال ولا انتظار  
جواب . فإما عقل ولا تصديق ، وإما تصديق ولا عقل ، صديق لا يجتمعان .

• • •

والفرق بعيد بين الأيمان الذي يلقي العقل ، والأيمان الذي يعمل فيه العقل عاية  
عنه ، ثم يعلم من ثم أين ينتهي وأين ينتدبه الأيمان .

إن الإيمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجة لاهله وإبطال وجوده .

والعقل يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعوة إلى التصديق بالغيب بجهول .

ويعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الإيمان لأن إنكار هذه لضرورة تقيصة عقلية وليس بتقيصة لتدين والعقيدة وحسب ، ولا سبيل للعقل إلى الإيمان بوجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير لاعرف بضرورة هذا الإيمان ولزومه منطقاً قبل لزومه لتداية الضمير

فالموجود الذي يصح أن تؤمن به هو وجود كامل أبدي ليست له حدود والموجود الذي ليست له حدود لا يحيط به إدراك العقل محدود .  
فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التي لا شك فيها .

هي إحدى اثنين ، إما إنكار جراف ، وإما تسليم بحقيقة تفوق إدراك العقول .

الإنكار معناه أن سبب الإيمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد لكل تعطيل .  
والإنكار اجراف يوقع العقل في تقيص ، (أهو تعطيل للعقل أفضل به من الإنكار

• • •

إن الموجود لسرمدى الكامل المطلق الكمال هو الإله الذي يريد بالإيمان ، وهذا هو حقه في إيمان العقل بوجوده وزيوبينه

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالموجود المطلق الذي ليست له حدود  
أعقول العقل إذن « لا يمكن هذا الموجود المطلق لأنه الموجود الذي يصح في عقل أن تؤمن به وسبحث عنه » ولا يصح في لعقول إيمان بخبره ؟ .  
العقل لا يقول هذا .

والعقل إذا قال بضرورة الإيمان على هذه الصفة ، وهذا الحق ، م يمكن قد ألقى عنه وأبطل وجوده ، بل هو يمنع بذلك غاية عمله ، فهو عقل يريد عليه إيمان .

إن العقل الذي يزيد عليه الإيمان ، هو العقل لدى حاصه القرآن ، التكليف . أو هو العقل ، تؤمس الذي يعينه الجوه بالتذكير والتفسير . وهو المسئول أن يستمع إلى النبي المرسل من عدم العيب ، فلا معذرة له بعد حجة العيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتكبير

\* \* \*

ومع التسليم بهذا الموحود الكامل ، لا يعرف عقل لاسان تكليف غير التكليف لدى مسقطه بصوص القرآن ، فلا معنى للتكليف أصلا إن لم تكن فيه صفة وحرية ، ولا معنى للحرية من رده رادة الخلق واردة المخلوق .

## أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ

حين رأى علماء القرن التاسع عشر من لعربيين أنهم مطالبون بتغيير كتابتهم  
من الألف إلى باء ، وأن تعريف شيء من الأشياء بأنه من عقائد العرول الوسطى  
كاف برفسه وإعادة بحثه ثم إعادته إلى الأصلح ببدلون جديد

وأول هذه التعريفات المتعددة تعريف الإنسان حسب موضعه من هذا العالم ،  
لأن الأساس لم يزل في كل عصر ، وفي كل علم ، وفي كل عقيدة ، مقياساً عداه  
من حلات هذا العالم ، بل مقياساً للعالم أجمع ، تبدل لنظر إليه كما تبدل النظر إلى  
الوجود بأسره

وم تبدل النظر إلى مركز الكرة لأرضيه من الأحرام السماوية . حتى حين إلى  
كثير من الفلكيين وجغرافيين أن حقائق السماوات والأرضين قد تغيرت لأن الكرة  
الأرضية مركز الإنسان .

وقد أعيد النظر إلى مكان الإنسان من الطبقة كلها ، موضعه عند حيوان  
موضح وحدث مع طبقة الأحياء التي عرّفوها باسم الأوتل Primates وهي في الدرجة  
من طبقات الحيوان للبرن .

وأعد «تصنيف» هذا النوع الحيواني فذهب بعضهم بعيداً في تقسيمه إلى  
عناصر ، وإلى الرجع بكل عنصر من أنواع من القردة الأولى . كما سيجيء في  
الكلام على آراء النشويين القائلين بالتطور والارتقاء

والذين قالوا إنه نوع واحد لم يرتأوا في تقسيمه إلى «عناصر» أو سلالات  
تكاد بولا التماسل فيما بينها . أن تعتبر أنواعاً مستقلة براكيب أبدان وعقودها ، بل  
فإن بعضهم إن تجردت العلم لم تثبت إمكان التماسل فيما بينها ، ولم تفل إمكان التماسل  
بين بعضها وبعض أنواع بقردة المشابهة لبشرية ، ويجب أن تشمل فصلاً قبل  
لتحقق من أن السلالات الإنسانية كلها قبة للنوادر فيما بينها ، كما يتوالد ذكور  
الحيوان وراثته من النوع الواحد بغير عائق سمي في دور الحمل ودور الطفولة ..

والدين سعوا باختلاف العناصر والسلالات ، لم يقعو بالقبيل من هورق هذا  
الاختلاف فمنهم من كاد يحمل اسلانة « الآرية » نوع « سبكلوجيا » يصارع  
السرع « البيولوجى » فى الاختلاف وفى قابلية « تفاهم » واتعام ، و « تناسل »  
العواطف والأفكار

وعدوا بعد الحرب العبدية الثانية إلى التراجع السريع فى هذا « التصيف » الذى  
حيل إلى أصحابه قبل جيل واحد أنه حقيقة وقعة تستعنى باستطر عن البرهان ، وما  
كانوا لسرعوا هذا الاسراع فى التراجع لولا بلاء « لاسانة » بعواقب ذلك  
« التصيف » الويل ، لأنه التصيف الذى سرع لعصر من لعصر أن يسبح  
السيدة على الأمم عوة ، وأن يستكثروا الآدمية على تلك الأمم التى لم يدخلها معه  
فى قرابة الانسان للانسان ..

فمن كبار علماء الأنواع فى العصر الحاضر من يقول كما جاء فى كتب هرون  
من مذهب داروين « إن انحرافه بين عناصر النوع الإنسانى اعتساف أو توسع فى  
التحيز ، فقد تقسم لسرع الإنسان إلى عشرين كثيرين يسكن أحدهما فى القارتين  
الآسيوية والأوربية والأمريكيتين ، ويسكن الآخر فى إفريقية وبلاد ادلايا والقارة  
لأستراالية . فإذا أردنا لمزيد من حصر فقد تقسمه حسب الألوان إلى بيضاء  
وصفراء وحمراء وسوداء وصغراء ويريد حصرها جميعها ثلاثين ، ولا بمنعت أن  
نجمعهم مائتين ولا صموية التفاهم على هذا التقسيم »

فحوى هذا أن هورق العناصر هورق أسماء وعناوين ، وأن « الانسان » أسرة  
وحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللعوبة التى تطلق على  
تلك الأقسام

• • •

فحوى هذا أن لقرآن قد وضع الاسماء - علما ودينا - فى موضعه الصحيح ،  
حيث جعل تقسيمه الصحيح إنه « ابن ذكر وأنثى » وأنه يتسمى بشعوبه وقبائله إلى  
الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الأخوة فيها بغير العمل الصالح ، وبغير التقوى



﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَحَعْنَكُمْ سُوءَ مَا وَقَبَّاهُ لِنَعَارِفُوهُ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾

«سورة الحجرات آية ١٣»

وقد سميهم باصطلاح الأسماء «أم» «كثيرة كلناعدت بينهم الموهن ونحيزت بهم الحدود وتشعبت بينهم العقائد والملتات ، ولكهم قبل هذا لاختلاف أمة واحدة لها إله واحد : هو رب العالمين

• • •

فإذا كانوا قد تعددوا شعوبا وماتل كما جاء في الآية شريفة ، فربما كان هذا لتعدد أقوى الأسباب للاحكام صفة لتعارف بينها وتعريف «الاسابية» كتبها بأمرار خلقها .. فان تعدد لشعوب والقبائل يعدد المساعي والخبيل لاستخراج كنوز لأرض واستشاط أدوات الصناعة ، على حسب المواقع والأرمة ، وعلى حسب الملكات والعدادات التي تفتق عنها ضرورات العيش والدود عن الحياة فيسجم عن هذا ما لابد أن يسجم عنه من تعدد الخصائص وأدبين لثقافة ، وتزداد «الانساسة» عرفانا بأسرار خلقها ، وعرفانا خالقها ، وفقرانا فيما بينها ، ونصطرا إليه نصطرا رايا تحسه من شتتك منافعها وسريان الضرر من قريبا إلى بعيدا

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّسَانِ وَالْوُكُوفِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ۝﴾

«سورة الروم آية ٢٢»

وهذا هو حكم القرآن في وحدة بني الإنسان ، وفي تدعيم هذه الوحدة ، بما يحسه الناظر المتجمل مايا من أبواب الافراق والتباين ، وهو تعدد اشعوب والقبائل واختلاف اللغات والألوان :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَفَوْا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَّتْ مِنْ رَبِّكَ نَفْسِي وَبَيْنَهُمْ فِيهِ خَصْمَتُونَ ۝﴾

«سورة يونس آية ١٩»

• • •

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

سورة البقرة آية ٢١٣

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

سورة هود آية ١١٨

﴿وَوَسَّيْنَا اللَّهُ لِقَافَتِكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَكَرِهْتُمُوهُمْ فَتَقَالِقُوا﴾

سورة المائدة آية ٤٨

﴿فَأَسْمِعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ﴾

إن هذه الوحدة في صفة الألسان مشدودة الأزر بالوحدة بين الناس كافة في  
الصفة بالله . أهم وارب العالمين - التي يسوى بينهم ويديهم بالرحمة  
والانصاف . ثم لا يقصى بينهم فيما احتلوا فيه ، لا يقصد من العدل ، أهم أحسن  
عملا وأقرب إلى التقى واستنق الخيرات

﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ سورة البقرة ١٦٣

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنشِئْتُكُمْ يَوْحَىٰ إِنْ تَعْلَمُونَ إِلَهًا وَاحِدًا قُلْ كَانَ

يَرْحَمُونَ رِيَّةً لِّتَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرَكَ بِعَادَةِ رِيَّةً أَحَدًا﴾

سورة الكهف آية ١١٠

﴿إِنْ هَدَيْتُمْ أَهْلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾

سورة الأنبياء آية ٩٢

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ تَعْلَمَ إِلَهًا وَاحِدًا قُلْ تَعْلَمُونَ﴾

سورة الأنبياء آية ١٠٨

وبعد كان من الخلل في ذمة العم أن يترتب عنماء العقيدة بين الأديان طويلا ،  
عند هذه المرحلة العظمى في تاريخ العقيدة ، وفي تاريخ الفكر ، وفي تاريخ القيم  
لأخلاقه ، بل في تاريخ الحصة الأساسية من مظهرها في صفات بعض المعتقدات في  
هذا الأوج السعق الذي ارتفع إليه بعد أوج المسكن ، وما كانت ترتفع إليه  
بعض ولا عقيدة غير العقيدة في رب واحد هو رب العالمين .

لها لم تكن كلمة في موضع كلمة ، ولم تكن صفة من صفات مقدس بيلا  
من صفة مثله . ولم تكن رمية من غير رم على لسان ماسك داهل يقول في تسبيح  
لمبود كيف يقول ..

لها لم تكن صفة من صفات المسعة ، نهيم بسفر الشارد في تيه من لسم  
والكهنة ، ثم لا يبال أن يعود إلى خلفه كما تعود إلى أمامها . على غير هدى ..  
لو كانت كذلك لذهبت في عمار الكهات والأوهدم . ولم يبال من لفظها أو  
استمع إليها أن يعيدها مرتين ..

ولكنها كانت قلعة يستقلها لاسان على سواء لم يكن باله بولم يعتدل إليه في  
مطلع الطريق ، وهيات على غير هذه نقسة أن يتظم للانسان مسلك معقول  
إلى الرشيد والصغير ..

إن قيم الأعمال والأخلاق ، لا قوام لها مع الأيمان برب هو رب هذه الفيل أو  
عد الشعب ، بين من خلق الله من قائل لا تخافها وشعوب لا ينظر إليها .

وإن هذه نقيم لغو عند الناس يحق بهم الذنب وما قترمود ، وهبط عليهم  
المفراء وما صعدوا إليه وتقبلون بين النعمة والنعمة يعبر جريرة من إثم ويعبر شفاعة  
من توبة ويعبر تيه الإمامة ولا يبه لتكثير

ب العالم لانساني كلمة غير معهومة عند من يدين برب غير رب العالمين ، و  
قيم الأخلاق كليل جراف حين تنقطع الأسباب بين حسنة وسيئات وبين الثواب  
والعقاب ، وإن « الاساعة » احاطه شيء لا وجود له قبل أن يوجد « الاسان  
المستور »

وإني يوجد « الإنسانية الواحدة » وتتساوى الإنسان والإنسان مع الإله الواحد  
الأحد ، رب الكس و رب العلى أجمعين ، أفصلهم عندة أتقدم وأصلحهم  
وأسبقهم إلى الخيرات .

وما اتقوى ؟ .

التقوى كلمة واحدة تجمع كل وارع يرع الصمير  
وأقدر ساس على أمانة التقوى ، أقدرهم على الهوى بالتبعة ، وأعرفهم  
بمواضع المعروف ونسكر والمبح وخطور  
والإنسان التى مرة أخرى هو الإنسان « الإنسان »

ما هذه تقوى تى يمتق بها كل فصل للإنسان عند رب العالمين ؟  
لو شاء فلاسفة لأحلاق لعمرو ما هى هذه التقوى ، وعموا حقا أن مواريتهم  
جميعا لا تحس الترحيح بين فصل وفصل وبين قدرة وقدرة كما تحس هذه  
« التقوى » التى يحسوها « تسعة » من تسبع المعاد ، ونحل ، لهم أنها أفضل من  
أن تنفع العالم المتحقق فى مقام الموازنة والتفصيل . فليس بين فاضل ومفصول قط  
من رجحان غير رجحان ، الفصل فى قدرة على تسعة . من صاب هم من ألوان  
التبعات

هى موضع الرجحان لعالم على الحمل ، ولترشد على العاصر ، وللدكى على  
الغنى ، وللقادر على العاجر ، وللمهدب على القدم ، وللمعجود على الخروم ،  
وللعنى على الغنى ، ونسب على العبد ، ولحككم على المحكوم ، ولصاحب الحق  
المكين على صاحب الخلق الهريل ، وكل فاضل - بالإيجار - على كل مفصول  
وما من ميران آخر ينفع فلاسفة لأحلاق فى طائفة من هذه الخصال ، إلا خذلهم  
فى طائفة غيرها . بن فى أكثرها وأحوجها إلى الموازنة والتفصيل .

فيسب « حسنة » لإنسان مائلة فى تفصيل انعماء على اجهلاء أو الرشدين على  
الفصر ، أو الأدباء على الأعياء أو غير هؤلاء على غير هؤلاء من الفاضلين على  
المفصولين . فإن انعم بقض الحاهل بالعلم ولا مرء ، ولكنه قد يزوب مفصولا عند  
المقابلة بينهما فى باب من أبواب الخبرة أو برعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل

راجع وكل مرجوح غير أن المال أو السب أو الخلاق ونعادات ولكننا إذا حكمنا بأن إنساناً يفصل إنساناً بالقدرة على تحمل النجاسات ، فهو الراجح لا مرء في كل ميران من موارد المفاضلة بين بني الإنسان ، وكل قبيحة تحسب للإنسان فهي داخلية ل هذا حساب ، فإذ جدر أن نهمل ويقتى الإنسان بعدها أهلاً لمرجحاً بالتبعات فهي مهمة جداً ولو كان لها شأن في غير هذا الإنسان ..

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ ﴾ «سورة الحجرات آية ١٣»

صدق الله العظيم ، إنه هو القسطاس الذي يبنى « بالإنسانية » حقوق مساواة بين أبنائها دينا وعمياً وفلسفة وشريعة وإلهام من لوحى للإلهي وتمحصاً من المدينة الانسانية

ومكان الوحى للإلهي في هذه المساواة أب قد شرعت للإنسان شريعتها حياً من حقوق الخلق والتكوين . ولم تشرعها له وسيلة من وسائل الحكم وإجراء من « إجراءات » السياسة في بيان الخطر المطلق عجيبة من ثورة انعموس وتنافساً على عدد لأصوات في معارك الانتخاب . فإن أحداً من حوهم القرآن تلك المساواة لم يظنها ولم يكن ليأها قبل أن تنزل عليه من وحى رب العالمين وبكها م تنشأ في حصاره من حصارات لعالم القديم أو الحديث لا كان وراءه حيلة أو وسيلة سياسية أو مروعة تمليق وتسكين ، ولولا حروب أثينا وامبرطية ، وحروب رومة وفارس ، وحروب الأمم في القرن العشرين ، لا سمح « ديموس » بشي « سمي الديمقراطية ولا رضح « الديموقراطيون » المتأخرون بشي « لدوى الماويل وامناسحل أو لنوى الألوان محندين للمصانع والمصكرات ولا سمح لعالم عسوة بين بني آدم لا فصل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله

## آدم

قصة آدم عليه السلام في القرآن هي قصة الإنسان الأول خلق من تراب ، وارتقى بالخلق السوى إلى منزلة العقل والإرادة ، وعلم من الأسماء فضلا من انعم مبره على خلائق الأرض ، من دى حياة وغير دى حياة .  
وقضى له أن يكسب فضله بمجده ، وأن يكون جهده علة لارادته وانتصار عقله على جسده

وقصة هذه النشأة الآدمية يستوحيها القرآن في هذه الآيات :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (سورة المؤمنون آية ١٢)  
﴿ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الذي أحسن كل شيء خلقه)  
﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ لَكُم مِّنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِي ﴾ (سورة السجدة آية ٦ - ٩)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَالِقٌ نَّسْرًا مِّنْ صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمِئٍ مَّسُونٍ ﴾ ﴿ قَدْ سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ سَاجِدُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (سورة الحجر آية ٢٨ - ٣١)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَسْمِعُونِي



في سبلها . فحق قد ذهبنا بالتصور عاية مذهبه لتقف عند قصة آدم والملائكة وما في الأرض والسماء من حلقة ذات حياة أو غير ذات حياة .

وعليها أن نعلم بالتصور مدى آخره وراء هذا المدى من تاريخ الإنسان ، وذلك هو المدى الذي نطلع منه على سياسة الخلق والتكوين ، على كل صورة من بصور مرة أخرى في احتمال لعقل ، أو في احتمال الفرض والتقدير

إننا نعلم من سياسة الخلق إن الأجسام الحية نشأت عن الكرة الأرضية قبل نشأة الإنسان . فكادت أن تسع مبع الخلال الصغار ونقل بعضها وزنا حتى أرف على مئات لأصناف ، ثم ميت لأنها فصرت عن ملكة التقدير التي تروى هذه الأجسام الصحاح ونسما نعلم شيئا بغير السماع والأطباء عن علاقات العقل التي تفردت فيها العقول عن الأبدان .

والعقل الإنساني يأتي أن يصدق إن هذا الكون حي من معدن العقل إلا أن يستعرضنا في جزء من عادة الأرض و بعد نشوء الإنسان .

أقرب إلى تصديقه . ولا نقول أقرب إلى إيمانه وكفى أن سياسة الخلق ولتكوين تصرفات في مقادير العقول ، كما تصرفات في مقادير لآدم إلى غاية ما نبلغه من الصحاح معزول عن لعقل وعن فضائل التميز .

تلك سياسة الخلق التي أدت بتكائنات العاقلة في عالم الروح أن نعلم مداها من اترق في معارج الحياة . وأن تطلق الأمر بالسحود للقيمة الخديدة التي تخرج عنها أستاذ الغيب ، ويودعها الخالق هذا الكيان الموسوم بالإنسان

ومن بسببه الإيمان أن تدع لندرس حقه في يبلغ هذه النشأة إلى المؤمنين بالغيب ، وأن تدع للعقول حها هي وسعت من علم . وفيها وسعها من نعيم إن النشأة لأدمية في القرآن هي طريق الحياة من الأرض إلى السماء ، أو هي طريق الكائن الحي من المادة الصماء إلى الخلق الحكيم .

ولا يأتي القرآن على مؤمن به أن يرسم مسبك الحياة من المبدأ إلى المصير على هذا لطريق الخلق البين ، فله لعل خادة في كل مكان يردده إلى الأرض ولا يقطعها عن الله .



## الكتاب الثاني

الإنسان  
في مذاهب العالم والفكر

## عُمْرُ الْإِنْسَانِ

يبدأ هذه المصول عن الإنسان في مذهب النعم والعكس بمفصل عام عن عمر الإنسان في هذا العام ، لأن تقدير الرمن الذي مضى على ابتداء حياة النوع للإنسان مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان في جميع المذهب ، ولا سيما مذهب نشوء أو التطور . وهو أن مذهب يتبع البحث فيه واستقراء ما يقدر عنه ، تأييداً وتنبهاً ، في تقرير مكان لاسن من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء . ويرى أن هذا المذهب أول المذاهب التي يتبعين بحثها هن ، لأنه أخرى أن يسمى « مذهب مذهب » وأن يدرس على سعة تخرجه من حدود المذهب الواحد الذي يقصر عن موضوعه الأصلي ، فإنه ما كاد يظهر وينتشر بين أصحاب الدراسات حتى عاد هؤلاء يحسبون أنهم مطالبون بإعادة النظر في موضوعاتهم للمقابلة بين قواعدها ومقرراتها قبل انتشار مذهب التطور وبعده .. فكتبوا عن تطور العلم وتطور الفن وتطور الأدب وتطور سياسة وعن أنواع شتى من الدراسات . يقال فيها اليوم غير ما قيل بالأمس بها بنفوايين أو الطريبات التي جاء بها الشوثيون ..

وسيسط القوم في هذا المذهب على وجه خاص على قدر استطاع في حير هذه الرسالة ، لأنه - على كل فرص من افروض - دعوى في قضية الإنسان يستمع إليها ولا تهمل كل الأهمال ، ولو اعتقدنا نظر فيها - كما يعتقد - أنها تقوم على آراء لا نرمم بها استبحة التي وصل إليها استوثيون لزوم ختم ، ولكنها معلنة إلى حين . ولبدأ بالكلام فيما يلي عن عمر الإنسان بتقدير العلوم المعصرية . ولا نناقض بين شيء منه وبين شيء مما ورد في آيات القرآن

لم يوجب القرآن على اسن مقداراً محدوداً من السنين لخلق لكون أو لخلق الانسان ، ولا يعلم أن ديانة من الدراسات الكبرى التي يؤمن بها أبناء الحضارة عرست لتاريخ الحقيقة خير الديانتين البرهية واليهودية ،

والديانة البرهية لا تقدر عمر الكون ، أو عمر الحياة ، تقدر محدود من

السين ، لأنها تحول بالدورة الأبدية التي تتكرر فيها جده الاسد مع جده الكون  
 بغير أجل معروف في ابدية أو اناية . وعند البرهمنين أن لكون فلك كبير ، يتم  
 دورته المتكررة مرة في كل ثلثائة وستين ألف سنة . وقد يراد هذا القدر أو ينقص في  
 تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المصاعفة عندهم بالدورة الشمسية ، وهي  
 عندهم مثل صغير للدورة لكونية الكبرى ، كلما انتهت دورة بدأت دورة أخرى من  
 دورات الوجود السرمدي عودا على يده إلى غير انتهاء

أما المصادر اليهودية ، فهي على حسب تحقيق الفقيه الكبير « جيمس يوشيا »  
 حتى سنة ١٥٩٦ ، تدل على ابتداء الخلق في شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل  
 ميلاد . وقد شرح أمانيده التي بنى عليها هذا التصدير في كتاب صحم سماه  
 السجلات القديمة والعهد الجديد : *Annales Veteris Novi Testamenti*  
 وأضيف هذا التاريخ إلى نسخة التوراة التي ترجمت على عهد الملك « جيمس »  
 وبماشها تواريخ الأحداث المذكورة في متونها .

وخل هذا التاريخ متصدا في طيات التوراة المنقولة عن هذه نسخة إلى العهد  
 الأخير . ثم أجمع شرح الكتاب العصريون ، يهودا ومسيحيين على تقدير السنين  
 ولأيام التي وردت في صدد الكلام عن الخليفة بمقادير غير معدلة السنين ولأيام  
 الشمسية . واستندوا إلى أن اليوم الشمسي وبل السنة الشمسية تساوي مدة دوران  
 الأرض حول الشمس مرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخليفة سنة  
 يوما شمسيا لأن الشمس نفسها حلفت في اليوم الرابع كما جاء في الاصحاح الأول  
 من سفر التكوين .

وقال الله : لتكن أنوار في جدد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لأيات  
 وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوار في جدد السماء لتسير على الأرض ، وكان  
 كذلك فعمل الله النورين العظيمين : نور الأكبر حكم النهار ، ونور الأصغر  
 حكم الليل ، والنجوم وجعلها الله في جدد السماء لتسير على الأرض ولتحكم على  
 النهار والليل وتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء  
 وكان صباح يوما رابعا .

...

وانتفى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء العرب ، من  
 صاحب الدين أو العلم ، شئ يدعوهم إلى تقدير عمر للحليقة يزيد على ستين قرناً  
 بحساب سنين الشمسية ، ثم تابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها  
 العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه لقرون الستون حتى أصبحت كدمحة النسر الحاطقة  
 بالقياس إلى أعمار الكائنات السماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن  
 بدسنة بصورية وتحققوا من النظر اليقين إلى بعض الكواكب أنهم يرونها الآن بعد أن  
 مضت عن انطلاق الشعاع بها ملايين من السنوات الشمسية ، وتبين من تحقيق  
 أعمار بعض الأشجار أنها نبتت قبل ميلاد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وإبراهيم  
 الخليل ، وتبين من بقايا النبات المتحجرة أنه كان يسوع على الأرض قبل مئات الآلاف  
 من السنين ، وقامت تقديرات العم في قياس أعمار هذه لكائنات على معايير محققة لا  
 نهل ثبوتاً عن قياس الساعات بحركة الرمل أو اناء في الساعات ارمينية والمائية ،  
 لأنهم يسون هذه لتقديرات على المعلوم محقق من سرعة لاشعاع المعدني أو مدى  
 الوقت اللام لتحول العناصر ، وأمثال ذلك من معايير حتى تصبح بقياس عينا كما  
 يصلح العلم بمقدار انرمس أو الماء ومقدار الوقت اللازم لانتصبيه في صندوقه قياسا  
 لساعات النهار والليل ، وكما يصلح العلم بحركات الكواكب قياسا للسنين والشهور  
 وقد اشتركت العلوم جميعاً في اتحاد مقاييسها لتقدير أعمار الكائنات فقام الساقى  
 عمر الشجرة بحلقات جذوعها ، وقاس الطبيعي أعمار البحار بمقادير الملح الذي  
 أفرغته الأمهار فيها ، وقاس عام نطبات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو  
 استقرار الرواسب ، أو باشعاع العناصر أو بالأحافير المتحجرة من بقايا النبات  
 والحيوان . وكلها معايير معقولة توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعاً إلى دهور محسوبة  
 بمئات الألوف من السنين ، وتمس في القدم حتى تحسب مئات الملايين

• • •

وأحدث المقياس العلمية التي تقاس بها عصور ما قبل التاريخ بقياس الكربون  
 المشع بكربون (١٤) تميزاً به من الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الثرى .  
 قال العالم الأمريكي « ويلارد ليبى » Willard Libby صاحب الدراسات

المأثورة في الطيبيات ندرية ، واحد - قبل منتصف القرن - أن نصف درات هـ  
 نكربون تتحلل في الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ،  
 يعمل فيها حساب فرق التقدير نحو ثلاثين سنة إلى الزيادة أو النقصان . فإذا  
 جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجري ، فمن الممكن ورب ما فيها من كربون (١٤)  
 وتقدير الزمن الذي انقضت فيه حياة الكائن الحي الذي نجتعت عنه تلك البقايا على  
 حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون . فإذا كان هذا المقدار نصف ، فقد مات  
 ذلك الكائن الحي قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، وإذا كان ذلك  
 المقدار ربعا فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألفا ومائة وست وثلاثين سنة ،  
 ويريد عدد القرون كلها نقصت بمئة البقية بباقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه  
 وبين الكربون (١٢) مع ذلك الفارق القليل الذي يحسب فيه لحساب الخطأ  
 التقدير .

وهذه المقاييس لكثيرة التي تبسط حساب القرون كما يضبط حساب الأيام  
 والليالي بالساعات الدنية والمائة - فقل تا يخ الأساس على الأرض راجعا إلى ألوف  
 القرون بدلا من العشرات أو الآحاد ، ووضع علماء لطبقات والحفائر مقادير الأعمار  
 المتداولة لكل طبقة من الطبقات الأرمية وجدت فيها بقايا الأجسام الشرية وقدر  
 للطبقة الحجرية ثلاثة أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة  
 وسبعين ألف سنة وسنائة ألف سنة ، ونسب إلى الطبقة العليا بقايا الإنسان التي  
 وجدت في لأقليم نغرية من لقارة الأوربيه ، وإلى لطبقة الوسطى بقايا الإنسان  
 التي وجدت في أواسط القارة ، وأقدم من هذ بقايا الإنسان التي وجدت في لقارة  
 لآسيورية بين نصين وبلاد الملايا ، ومثلها في أقدم أو أقدم منها بقايا الإنسان في  
 أقدم الجنوب الأفريقية

وآخر البقايا الانسانية التي وجدت في لقارة الأفريقية جمجمة ، وجدده  
 الدكتور ليكي Leakey في شهر يوليو سنة ١٩٥٩ - ووجد معها نقبا حيرانات  
 يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها بطعامه ، ويستخدم في صيدها  
 مسحة حجرية وجدت آثارها على معرفة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت بحري

أودى ، تنجيف وسمى هذا الإنسان باسم عمى معه لائن الرجل  
Zinianthropus وبقوه في أدوات العمية بنقب الأكامر جورة لصحافة فكه  
وضروسة . ويقدرول تاريخه بحو سنائة ألف سنة على حسب قياس زمن يتدك  
لحافيس المتعدد ، ومنها حساب زمن التمحجر وزمن تكوير الطبقة وزمن تتطور في  
تركيب العظم وزمن النفايد التي تخلفت من عظم لصك والأسنان .

وليس من المحقق أن يرعل التاريخ في القدم إلى كل تلك الأنوف من لسين ،  
ولكن المحقق أن إيعاها إلى تلك الدة كنها أو ما هو أقدم بها يس بالأمر المستعرب  
في أقيسة زمن أو أقيسة أع الحاء - بية ، بعد و صوح المحقق الثابتة عن قدم  
تاريخ الحفنة من ط عريف الأرمصة وطع هرها استباوبة على السواء .

والمحقق كدنت أن الإنسان القديم مدى دلت عليه تلك البقيا ، كان يستخدم  
الآلات الحجرية ، ويستعين في كدهج أعدائه من الحيوانات النصارية بصيبي من  
الدكة لم يكن معهودا في حيوان بها . فهو في أقدم عهوده ميم بالغل والطلق وهم  
صفت ، سابتل لا مفصلان من استخدام الآلة ولا عن الخاصة المميرة بحيوان  
مناط من اعتدال لقامة ومطوعة اليد للارادة في حالات المثني وابوهوف ، ولولا  
ذلك - ستفاح لإسناد أن يستخدم سلاح - لم يصعه لإحبيه حيوانات نصارية  
من عيل .

• • •

أما الإنسان في مخمعات الحصاره فلم يكشف ، بعد . فريدن على تاريخ له  
قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، وعلى ناسب الحصاره ذلك الإنسان الذي عرف  
الشريعة ونظام المعامه وسخر حيوان كي سخر العناصر الطبيعية في مصاحبه  
لمشركة وقد وحدث في ودي الليل آثار الإنسان المقم الذي كان يستخدم  
الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض في تدبير معامه وأسباب معيشته ،  
ونكن اذنتق عليه أن هذا الإنسان لم يكن يعرف الكتابة ولم تكن نقوشه على الحجر  
من قبل الرموز المصطليح عليها نقل لأفك وسجل الوقائع ، ولكنها أقرب إلى  
نظام السحرية أو إلى أشكان البرية ، وإها - على هذا - لتعتبر مقدمة لازمة  
شاه المرية التي تحقق اصلاح ويكمل مصاحبا لدوام في ميدان الشارع

• • •

وليس لنا مأخذ من أحد ليقول بروايات الأقدمين عن ما صيغهم السعيد في حياة  
الثقافة والحضارة الرفيعة ، ولكن روايات لا تهمل في صدد الكلام عن تاريخ  
الإنسان وليس لنا كذلك أن نتقصها بغير دليل .

كان هيرودوت - المؤلف بأي لنا - يحش في القرن الخامس قبل الميلاد ،  
وهو يروي في كتابه الثاني عن كهنة الفرعنة أنهم يصرون تاريخ الدولة من عهد  
ملكها الأول ثلثائة وواحد ورعين جيلا ، أي سحر أحد عشر ألف سنة على  
حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويمتد بعض الباحثين المحدثين أنه تقدير غير  
مبالغ فيه . وأن مواقع بعض الهياكل تدل على تقصاء زمن كهنة هذا الزمن قبل عصر  
هيرودوت في مراقبه فلكية سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية في التقويم  
لقديم وهذه السنة الشمسية في تقويمنا الحديث ، وهو فرق يبلغ سنة كاملة كل ألف  
وأربعائة وحدى وستين سنة ، ولا سبل إلى إدراك هذا الفرق في أمة تمهل لرصد  
والسجل وتعتجز عن مراقبة هذه الفروق دورا بعد دور في تاريخها الطويل .

• • •

وبما يذكر ، ولا يهمل ، في صدد الروايات المتواترة عن الأمم العداوة رواية  
أفلاطون عن القارة المفقودة التي سماها القارة الأطلسية ، وذكرها في كتابين من كتبه  
المحمولة هو كتاب « تيمائوس » Timaeus و « كريتياكس » Critias ويروي من أخبار أهلها  
أنهم تقدموا في الحصار تقدم لم يدركه أحد من بعدهم ، ثم عصت بأهلها تحت  
الأرض على أثر زلزال من زلازل العصور العائرة نرى يظهر من أخبار الأقدمين أنهم  
كانوا يحسبونها من عوارض الطبيعة الدائمة أو عوارضها الدورية . وقد بحث طلاب  
الأسرار في مجاهل الماضي المذخور عن موقع لقاره المفقودة فرجح بعضهم أنها كانت  
في موضع الخليج الأطلسي بين شبهة وومضه ، وأنهم رلت في إحدى الكوارث  
الكلوية التي قدروا لوقوعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد فلم يبق منها إلا بعض حفر  
مركانة

---

(١) يرجع إلى كتاب فيونكسكي Vionkovsky من العلوم الاقتصادية

وقد كان أفلاطون أحد روافد هذه الأسطورة ، فلقبت من حابة الاحلاف  
اللاحقة ما لم تلقه أساطير عصره ، وجاء فرانسيس باكون فيلسوف علوم التجريبية  
بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم الأطلسية الجديدة ، ووصف فيه العالم  
الجديد كما يتعناه

إلا أن الغالب على المحدثين أن يتبعوا في هذه لرواية مهجهم «التفيدى» في كل  
رواية تخلفت من تصور الأولى وانتقلت إلى المصور الأخيرة مع أساطير  
الأقدمين ، فحسبوا حملة واحدة في عداد تلك الأساطير ، وهو منهج كانت له  
مضوائه القوية في مرحلة الانتقال بين طليعت لقرون الوسطى ومطامع الكشف  
والتحقيق عند أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استقرار عصر الكشف والتجربة  
العصرية حثيق أن يوطد الاقدام على بر الأمان ويسمح لساحت بالتردد في الانكسار كما  
سمح به من قبل بالتردد في القبول ، بل بالتعجل في الرقص مع حجة ولا مواربة بين  
مسوعات الكذب ومسوعات التصديق ، ولعل الكشف الكثيرة التي تعافت  
خلال القرن الثامن عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل  
الأساطير قد أقنعت أكثر ناسحين بأن الرقص غير برهان أصري بالبحث من لقون غير  
برهان ، لأن الذي يحرم برقص خير قديم لما يحكم بالاستحالة على المكثات الكثيرة  
التي تجوز ولا تمتنع في العقول ، وخير منه عقلا من يقل شيئا ممكنا ، وإن لم  
يقم البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من المكثات

وإذا حق هذه الأسطورة ، أن تشفع لها رواية أفلاطون ، فقد يكون من  
شبهاتها الحديثة التي تركى تلك الإشاعة الموقرة أن المحيط الأطلسي بنىء الباحثين  
المحدثين عن صندوق واسعة يدل عليها تقابل الخطوط بين شواطئه الشرقية وشواطئه  
الغربية ، وقد تبلى عيبها أغوار القاع وسلاسل المواقع المتبارة على متداده طولاً  
وعرضاً بإزاء قارت العالم لقدم والعالم الجديد ، وهذه كلها كشوف متأخرة لم  
يعرفها الأقدمون شيئاً حين تناقشوا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

على أن الكشف الأثري في أسسوت الأخيرة قد خرجت بأساطير انهارت  
لمفقودة من عالم الأسرار إلى عالم الآثار وطانعت باسم قارة جديدة في محيط آخر غير



المحيط الأطلسي ، ولكنه يعالقه في الموقع ويشبهه في الظواهر والأغوار ، وتلك هي قارة مو « Mu التي ألف عنها الكولومب جيمس شرشوارد chruclward كتابه بدم « قارة المفقودة » و « أبناء مو » وروى فيها أخبار حضارات سابقة تصور التاريخ يرجع بها قديما إلى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد . ويعرر دعواه برموز وإشارات يعسرها بمعانيها الغوية ، ولا يقنع باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش الباء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تبلغ هذا مبلغ عمدة تجهل الكتابة ونقل الأفكار بالعلامات والخطوط

• • •

وعلى عهدة المؤلف نقل خلاصة كتبه عن القارة المفقودة مقبسة من مقدمته لكتبه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول ما فحواه

« إن قارة مو » كانت قارة واسعة تقع في المحيط الهادي بين أمريكا وآسيا ، ويقع وسطها إلى الجنوب قليلا من خط الاستواء . . . ويقدر طولها من الشرق إلى الغرب ستة آلاف ميل ، وعرضها بين الشمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقد دهمها زلزل عنيف قبل نحو اثني عشر ألف سنة فابتدتها لحج المحيط وعاص معها إلى قراره نحو ستين مليون إنسان ، ويستند على وجود تلك القارة بالآثار الكتابية والروايات المتوارثة التي يتداولها أناس من أبناء الهند والصين وبورمه والتبت وكمبوديا وأواسط أمريكا ، وبها نقوش ورموز شوهت في جرر المحيط الهادي ، تؤيدها روايات الاغريق والمصريين الأقدمين وتتوافر حولها الأساطير بين بقاع الدنيا المتراصة على أرجاء الكرة الأرضية . وقد حط الاسان خطواته الأولى في سبل انضمام والمعرفة قبل نحو مائتي ألف سنة ، وانتهى قل مكبة القارة بالزلزال إلى شأو من الحصار لم يصل إليه حتى الآن في حصارتنا الراهنة ، لأن حضارتنا لا تدعى لها عمرا أطول من خمسة آلاف سنة وهي مرحلة قصيرة بالقياس إلى انشأو الذي يدركه الانسان العاقل بعد ممارسة الحصار والصناعة مائتي ألف سنة ، وليسب حضارات الأمم الشرقية العريقة من الهند إلى بابل ومصر وإلا ومصبات الرماح المنحلف من حصاره تلك القارة العريقة ، وقد سر المؤلف ما عثر عليه من الرموز والرموز واعتمد في بعض تفسيراته

على كهان شارب البرهية وعلى حصول لظلام التي نهى إليها قراء لكتابات  
 القديمة على آثار العرب وحشرك ، ومما آثار المايا وآثار الفراعنة ويمون المؤلف  
 انه لم يأت برأى من عمده في كل ما بسط القول فيه من أخبار تلك القارة ،  
 ولكنه رأى ما يراه كل مريض تحت النقوش والرقوم يتقبل طريقه حين كما  
 شرحها مشقوعه بأسانيد وبالأدلة التي يؤكد معانيها ، وقد ثبت له من تلك  
 الأدلة أن بعضها يمتد في الأرمية المصرية إلى سبعين ألف سنة ، ولكن الآثار  
 التي نالت من قارة «مور» نفسها حد قليله ، وغاية ما أمكن العثور عليه من  
 الآثار المتصلة بها آثار رمزيان مصنوعان من البربر ، يرجع تاريخهما على الأقل  
 إلى نحو عشرين ألف سنة إذا كانا من مخففات الحصرة التي بقيت على أرض  
 القارة الآسوية بعد لرلرل وقبل الصوفان وقد يرجع إلى «ماد» بعد من ذلك  
 جدا إذا كانا من مخففات «مور» التي نمت إلى بلاد القارة الآسوية .

• • •

والخديدي في قصة هذه القارة كي رواد مؤلف كتابي القارة المفقودة وأساء «مور»  
 أنها تحدث عن الانسان «المتدين» في تلك العصور السحيقة ، وأنها تصف لنا هذا  
 الانسان «مخلوقا» مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصية التدين وبين هذه  
 الميزة التي تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذاهب النشويين الذين  
 جعلوا الانسان نوعا من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الارتقاء ، وقد  
 أم المؤلف بمشاهبات عارضة بين محمل الكلام عن الخليفة ، وعن كتابات لاسان  
 في العصور العابرة ، كما جاءت في الآثار الأولى وفي كتب الأدباء البقية ، وغاية ما  
 نقوله عن تركيزات المؤلف وتحميناته معا أن مسألة الانسان المتحضر قبل عصور  
 التاريخ ليست مما يهمل في سياق يعرض لتاريخ النوع الانساني ولمكان الانسان من  
 كتب الدين

## الإنسان ومذهب التطور

القائلون بالتطور فرقان مهم من يعمم تطبيقه على الكون كله كما اشتمل عليه من مبدء وقوة ، ومهم من يقصره على عام لكائنات العنصرية التي تشتمل على النبات والحيوان والإنسان ، ولا يحيط بما عداها من الموجودات غير العنصرية . ولقائلون بالتطور العام يوجهون مسألة الخلق ، أو مسألة الإيمان بالخالق ، في كلامهم عن لعالم وعن القوى المسيرة به من خارجه أو دخله ، ولما صرح لهم من التعرض هذه القوى برأى من الآراء ..

فان الذين يقصرون التطور على الأحياء ، يرجعون إلى تحليل تطوره إلى عوامل الطبيعة وما تشمله من مؤثرات البيئة والناح ومورد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضطرون القول بهذا التطور إلى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باليات أو انكار . فقد تكون عوامل الطبيعة في مذهبهم حاصصة لقوة عالية فوق طبيعة ، تودعها ما تشاء من النظم والنواميس ، ولا يتناقض القول بالنظم الطبيعية عندهم والقول بما وراء الطبيعة ، على حسب المعايير الدينية أو لمذهب الفلسفة

أما تعميم التطور على الكون كله ، فلا بد أن يسبقه سؤاله عن القوة التي تمتد لتسير هذا الكون من لأرب إلى غير نهاية ، ولابد للقاتل بتعميم التطور من الفصل في مسألة لبداية والنهاية وهي لا تنفصل عن مسألة الخلق والخالق في جعلها

فقد كان تطور الأحياء يرجع إلى عوامل لبيئة الطبيعية ، وقد اخرج الكون كله يرجع إليه تطور الكون من المبدء الأولى ١ وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التي لا أول لها ولا آخر . فقل أن الكون موجود بلا ابتداء ولا اختتام ٢ من أشهر القائلين بالتطور العام هربرت سبسر ( ١٨٢٠ - ١٩٠٣ ) الذي عرف لتطور بأنه انتقال من البسيط إلى المركب ، وقال عن تطور الحياة أنه توفيق دائم بين مصلب البيئة لحية وبين ظروفها الطبيعية . وهذا يحدث التغير للسنة ثم يحدث هذا لتوسع والامتداد ، ويرقى في وظائفها تبعاً لانتساعها وامتدادها .

وقد عرّضت به قضية البداية الأولى فتمّ بسجلها في حدود الطبيعة ولم يخرجها من حدودها .. ولكنه قسم الحقائق الكونية إلى قسمين بالنسبة إلى معرفه الإنسانية أحدهما حقائق الأشياء في دونه وفي أصولها الأولى وهي القسم الذي لا يدرّك ولا يتقل الإدراك بالأساليب العلمية ، والآخر حقائق الأشياء في طواهرها المحدوده وهي التي يستطيع عقل الانسان أن يدركها بالاستقراء والاستدلال . ويظهر فيها عمل التطور بما يستخرج الأحكام العامة من المشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هذه المشاهدات على حسب تلك الأحكام .

وأصحاب هذا الرأى من القائلين بالتطور لعدم - على بردهم في مسألة الأصول الأولى لا يتحاجون هذه لأصول ، ولا يقولون أن القول بالتطور لعدم يوجب عليهم أن يرجعوا إلى المؤثرات لكونية التي تصدر منها آثار كثيرة ونفسرنا أسبابها ، وأن إطلاق القول بالتطور من مبدأ الكون غير تخصيص لتطور الكائنات العنصرية وتفسيره بالرجوع إلى العوامل التي تحيط بتلك الكائنات وتعمل فعلها أو تعمل معها تشاركها . ولكن أصحاب التطور لعدم على مذهب مسيريسمون بتلك المؤثرات لكونية وتركوا البحث فيها عجزاً عن الوصول إلى النتيجة ، فيقفون بالمعرفة الإنسانية عند الآثار التي يدركونها ويحجمون عما وراء ذلك ، فيسلكون في عدد المجهولات التي لا تدرك بالحواس والعقول ..

ويبقى أصحاب التطور عام الدين لا يذهبون مذهب مسير في تقسيم المعرفة الإنسانية بين مدرك وغير قابل للدرك ، وهو قبل ذلك مذهب الفيلسوف الايقوسى هامستون ( ١٧٨٨ - ١٨٥٦ ) ومذهب الفيلسوف الألماني غنوبل كانت ( ١٧٢٤ - ١٨١٤ ) في الطواهر والحقائق أو في الأشياء كما نحس وتدرك ، والأشياء في دونه فأصحاب التطور هؤلاء فريقان . يقفون من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين .. وتفسير هذه الأصول عند أحدهم - وهو فريق المؤمنين - أنها من صنع الخالق الحكيم ، وأن القوة التي تصدر عنها آثار التطور في كون كنه منذ بدئته لا بد أن تكون «قادرة» فوق الطبيعة وفوق الكون بوجدعه ما تشاء من انظم واسواميس .

والفرق الآخر - وهو فريق الماديين المكربين - يكتفى من التفسير بذكر العوامل التي يسبب إليها التأثير واعتبارها طبيعة في المادة لا تفسير لها إلا أنها وجدت هكذا ، ولا يمكن أن توجد على صورة أخرى غير التي وجدت عليها

فلذا احتاج الفيلسوف المادي إلى القول بالحركة الدائمة ، قال إنها عدة المادة في أصل تكوينها ، وإذا لزمه القول بتغير مع الحركة قال إن المادة المتحركة متغيرة بطبيعتها ، وإذا لزمه بعد ذلك أن يجعلها متغيرة من البساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض فهذا يقول عنه هو وصف نواقع وتفسير له في وقت واحد ، وكذلك يفسر التقدم والارتقاء وهما يستلزمان العناية المرسومة والنتيجة المقصودة ؛ ولكن الفيلسوف المادي يحسب أنه فرع من التفسير بوضع كلمة « الضرورة » هنا موضع كلمة العاية المقصودة .. وليس عند الفيلسوف المادي تفسير لهذا التعدد الدال في ظواهر الكون وأحرثه ، مع أنه يتطور من وقت واحد أو مبدأ واحد ، وجريان هذا التطور على مادة واحدة وقوة واحدة وليس عنه معنى لهذا التقدم أو عاية يتقدم إليها غير انصاء أجل الكون مرة بعد مرة ، كلما انقضت دورة من دوراته الأبدية بين التآخر والتقدم ، أو بين الهبوط والارتقاء

وكل هذه الفلسفة المادية تلخص في كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شيء فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشبه كلمة الخامل الذي تسأله عما وقع أمامه فيقول لك « وقع وحده » ولا تفهم منه عنه لوقوعه أوضح من قول المادي فيلسوف إن المادة تتغير لأنها متغيرة ، وتتقدم لأنها متقدمة ، وتنقل من البساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض لأن ذلك كله من طبيعتها . ولولا أن المادي الفيلسوف يقرر مذهبه في التطور ليصل به إلى نتيجة في المستقبل يوحى بها على الناس وعلى الزم لتساوي تفسيره للتطور العام ومكونه عن تفسيره . ولكنه لو احتار أن يتأنتج تناقض تلك النتيجة ، وحتار أن يفسر ذلك أيضا بأنه طبيعة من مدائح المادة وطور من أصدورها لما كانت حجة في إحدى لبيات أقوى من حجته في الأخرى

...

والقائلون بظهور الكائنات العنصرية ، ممن يقصرون لقول عيبها ولا يعممون تطبيق التطور على جميع الكائنات يميون - على الأعلل لأعم - إلى القصد في التفسيرات والتعليلات ، ويتجنبون البحث في الأصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يجمع ستجربة ويصنع للتقرير بأساليب العلم الطبيعي الحديث وحلاصة مذهبهم أن أنواع الأحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية ، وأنها ترجع جميعها إلى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هي خلايا البدائية ..

رئيس لقول شقارب الأنوع أو بتدرجها ، رأي حديثا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أو مذهب الشوئين العصريين على العموم ، ولكنه رأي قديم قال به فلاسفة يونان وعرفه مفكرو العرب كما سمينه في فصل آخر من فصول هذ الكتاب ، وإنما الجديد منه إسناده إلى أسباب العموم الطبيعية التي شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل لقرن ثامن عشر ، وبدأ لقول به مع ابتداء البحث العلمي على مناهج العلماء الحديثين .

قال به العالم الساني السويدي كارل لينوس ( ١٧٠٧ - ١٧٧٨ ) Carl Linnaeus الذي عني بتصنيف الأنوع والأجناس في درسته لنباتات ونبات على هذا التصنيف رأيه في أنواع الأحياء على التعميم ، وقد كان صاحب هذ نظام أثر وسمع في أسيطة العلمية الاخيرة ، فأنشئ الجميع النبي في لندن بعد وفاته بعشر سنوات ، نسبة إليه

وقال به بوفون العدم الساني الفرنسي ( ١٧٧٧ - ١٧٨٨ ) Buffon لدى ألف كتابه المفصل عن كتاريخ الطبيعة تعاونة لأستاذ دوبرتون Daubenton وآخرين ، واتخذ من تصنيف أنواع نبات رأي بمثابة في تصنيف أنواع الحيوانات

وكان من المعاصرين خديين العالمين ارسموس درون Erasmus Darwin ( ١٧٣١ - ١٨٠٢ ) جد درون الذي يسم إلى مذهب الشوء والتطور ، فكان رائد لخصه في لقول بالتدريج لاسناد وحيوانات العيرة ، وعاش معه في عصره اله المقيه لايقوسي ورد مبيودو ( ١٧١٤ - ١٧٩٩ ) Lord mon bodda صاحب كتاب « أصل لبعه ورتقب » وكتاب « دور » الطبيعة في العصور القديمة ،

ومده في تطور الإنسان ظاهر من بحثه عن الأسباب الطبيعية لتطور البنية وعن  
لعلاقة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة عند الأقدمين .

وبين من المقارنة بين نواريح ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم الطبيعي في  
القارة الأوروبية من شأنها إلى حيوانها كان قد تبنياً لدراسة الحياة والاحياء على أساس  
لوحدية في قوانين الطبيعة ، ولم يكن ذلك مقصوراً على السويد وفرنسا والمختل ، بل  
صاح من رويات مؤرخي العلوم عدد لا يحصى والروس أن هذه الآراء وجدت من يقو  
بها على نحو من الأنحاء ، وإن كانت رويات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من ملاحظة  
الفخر بالسبق العلمي بين الأمم الأوروبية .

ولكن مذهب الشئ به يُعرف بتخصيصه قبل العالم الفرنسي لامارك ( ١٧٤٤ -  
١٨٢٩ ) Lamarck ثم العالمين الانكليزيين . شارل دارون ( ١٨٠٩ - ١٨٨٢ )  
ورميته لفريد رسل والاس ( ١٨٢٣ - ١٩١٣ ) وعلى صاحب هؤلاء العلماء الثلاثة  
يقوم أساس مذهب الشئ ، أو مذهب التطور ، بشقيه المقدمين في اعتبار  
العلماء إلى اليوم .

\* \* \*

وكل من لامارك ودارون والاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها إلى نوع  
وحد أو أنواع قليلة ، ولكنهم لا يتفقون على أسباب التحول ولا على لصف  
والوحدات التي تنتقل بالوراثة متى تغيرت في تكوين لأفراد

ففي رأى لامارك أن أعضاء الجسم الحي تتغير بالاستعمال أو بالامتناع أو بطارئ  
من طوارئ المرض والاصابة . وأن الصفات المكتسبة التي تتولد من ذلك تنتقل  
بالوراثة ولا تترك تباعداً بين الأفراد حتى يفصل كل من سوره المستقل الذي لا يقبل  
النسل مع غيره . وقد ضرب مثل بالزرافة واقترض أنها تحول قوائمها كانت  
تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا . وتعودت أن تخط عطفها كما تجردت العروق  
السلي من أوراقها حتى بلغ غلبة امتداده . وثبت على هذا الطول في أعقابها  
لموالية

والشويون الذين يرفضون القول بوراثة الصفات المكتسبة ، يستندون على

يظلال هذا الرأي ببعض الصفات المكتسبة التي شوهدت منذ أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر وراثي في الأجنة وبموانيد ، ومنها أن نساء بورما تعودن منذ أجيال أن يطلن أعناقهن بالأطواق المربضة بعض طوقا منها فوق طوق حتى تبلغ من الطول عاية الاحتمال ، ولا تزال بناتهن يولدن بأعناق لا تزيد في طولها عن أعناق السيد المذكور ، ومنها أن عادة الختان عند اليهود لم تعقب أثر وراثي بعد استمرارها منذ ثلاثين قرنا أو تزيد . وشاهد مثل ذلك في ذرية الحيوان الداجن التي تعود المدحجون له أن يقطعوا أذنايه أو يستأصنوا بعض أعضائه ، فانها تولد بأعضاء كأعضاء آبائها وأمهاتها بعد انقضاء عدة أجيال عن تدجينها .

ويرى الشوثيون المدين يقولون بوراثة الصفات المكتسبة أن قصر الزمن الذي مر على هذه المشاهدات بالقياس إلى الأمد الطويل التي مرت على تطور الأنوع الحيوانية - لا يكفي للجزم بامتناع لوراثة عن إصلاقتها ، وأن إهمال الأعضاء بالقصع بس من شأنه ضرورة - أن يورث ولو طال عليه الأمد ، لأن المقصود بالإهمال ما يحدث أثرا في قوام البنية الناقية أو يشأ عن حدوث هذا لأثر فيها .

ويلجأ الشوثيون على رأي دارون وولاس - إلى تعليل آخر حدوث التحول في الأنوع ، فيعزلونه بالانتخاب الطبيعي والانتخاب الحسي . مع القول بتنازع البقاء لزيادة المواليد الحية على الموارد الكافية لتغذيتها ووقايتها .

فانزلة - عندهم - ثم تنقل صفة مكتسبة إلى ذريتها ، ولكن أفراد الزراف وندت قدي وفيها تفاوت في الصفات كما يتفاوت الأفراد في جميع الأنوع ، ونرى أطولها عنقا لأنه استطاع أن يبيع أعنق الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف عن بلوغه ، وهنا يعمل الانتخاب الطبيعي عمله فنش ذرية الزراف الطويل المنق ويتقرض ما عداها ، ويعمل لانتخاب الحسي عمله مع الانتخاب الطبيعي لأن الأفضل من ذكور الحيوان وإماته يفصل على غيره عند الحس الآخر ، فيعقب كلا الحسيتين المفضلتين ذرية تشبه في الامتياز على سائر الأفراد .

وبين مثل لرافة في رأي دارون بأسعد خطأ من هذا المثل في رأي لا مارك ، لأن المعترضين عليه يقولون إن قلة البورق على هروع الشجر لتسفل بييد صغار الزراف



كما يبيد أنواع الحيو ان التي تعيش مثله على نعشب أو على الشجر القصار ، وأن  
ذكر الزراف أطول أعماقا في الماء - من بانه ، فهي حقيقة ن نفى مع غيرها  
من الزراف القصار الأعناق .

إلا أن الأكثري من النشويين يعتبرون هذا الخطأ سوء تمثيل من دارون ، ولا  
يجعلونه سببا كافيا لصلان القول بالانتخاب الطبيعي . هو أن دارون نظر إلى مرة  
انقوائهم الطوال ، ولم ينظر إلى مرة الحق تطويل لأمكن تعليل بقاء الزراف المختار  
بالقدرة على اخرى جعل الانتخاب الطبيعي والانتخاب الحسى في وقت واحد ،  
لأنه يملت من عطارديه ويسبق سائر الزراف إلى أماكن المرعى كلما اضطرتة ندرة  
المرعى إلى الانساق من مكان إلى مكان ، وقد صبح تمثيل دارون بأنواع شتى من  
الحيوان غير نوع الزراف فم يصادفه فيها مثل هذا الاعتراض

• • •

وبعد القدرة بين الرأي - رأى لامارك ورأى دارون ووالاس - ينصح أنهما  
ينتهيان إلى نتيجة متشابهة ، وهي ضرورة القول في النهاية بوراثة الصفات المكتسبة  
على طول الزمن ، فإن م تنقل بعد اكتساب في حياة فرد واحد فهي منتقبة بعد  
التجمع ولتحكم من فرد إلى فرد يتم بينهما التوارث فجأة أو على أثر التدرج البطيء .  
وم يكن في ذهن دارون فرض معلوم غير طول الزمن يوم خالف النشويين من قبله في  
علبه لتحول الأنواع ، وكل ما هنالك أن دارون جرى على عادته من احتساب  
الأحكام الاليجائية كما أمكن تعيل الظواهر المجهولة بالعلل السببية ، فهو يقول إن  
لأنواع نبي لأن أسباب لانقراض عجزت عن إبادتها ، بدلا من القول بمؤثرات  
معينة تخنى الصفات وتؤدي إلى انقراضها بالوراثة ، وبكاد آراء في تسارع البقاء ول  
الانتخاب الطبيعي والانتخاب الحسى ، أن تنهى إلى نتيجة وحده ، وهي أن  
الاحياء ليست لأسها لم تنقرض ، وأن أسباب انقضاء عجزت عن إبادتها كما أدت  
غيرها . وهذه قاعدة الذهبية هي في وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف في  
تفكير دارون وفي هذا الضرب من التفكير على عمومته . . . . . دليل على الأمانة  
العكرية التي تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحاطة بحقيقته ، وهي كذلك

موضع سقصر يظهر لأن العوامل السلية لا تقوم عليها دلائل الخلق والانشاء .  
وإن قامت عليها أحيانا دلائل البروال لدى هـد روبر فريـق وسلامة فريـق .

وقد كان خطأ الشوئين في تقرير مسألة نورثة بقصا لأرما لباحث العلم الطبيعي  
في القرن التاسع عشر . أي كان رأي العالم لدى يقرر هـد المسألة . لأن أسرار  
نورثة م سرور قبل تقدم علم السلات ( أـر اجينات ) Genetica وظهور علم  
الناسلة Gene والصيغة Chromosome في نقل الخصائص والفوارق الفردية من  
الآباء والأمهات إلى الأبناء . فكل صفة لا تكمن في الناسلة ولا تحتوي صيغة من  
صبغيات فهي صفة عارضة لا تنتقل إلى الذرية بالنورثة ، ويقول الأستاذ يعيل  
جورج أحد ثبات هـذا العلم - إن الانتخاب الطبيعي لأجل هـذا - لا يصلح  
لتفسير مذهب لشيء أو مذهب التطور . لأنه يعمل رول غير الصالح ولا يعمل  
نشأة المراهبا التي تحقق الصرح وتكفل بصاحبها الدوام في ميدان تنازع البقاء ، ثم  
تفتح الباب لعمل الانتخاب الطبيعي في المستقبل عند التفاوت في تلك المراهبا المورثة  
لدى الأمرد . وإنما نشأ هـذه جزاء يعمل من أعمال الطفرة Mutation يكمن  
لأحداث التعبير المطلوب في الساسة وفي صيغتها التي تنقل تلك المراهبا بالنورثة وقد  
أمكن العلم باخواس التي تنقلها كل صيغة من الصبغيات في بعض أنواع النبات  
والحيوان ، وأمكن التأثير في الصبغية بفعل العقاقير أو الأشعة السينية ، ويقال إن  
الأشعة الكونية تعمل هـذا العمل إذا عدت إلى بسور النبات والحيوان ، وبها يعملون  
التحول المعجى كما يعملون الاختلاف الطارئ على النبات في الألوان والأحجام  
والأشكال ..

وتجربى تجارب لاشعة الآن لأحداث التحول الموروث في أنواع من السباب  
والفرش ، وقد تؤدي التجربة فعلا إلى ظهور خاصه في الحشرة تغير دريتها فتخالصها  
بعض مخالعه ويشت الاختلاف بعد ذلك على سبب الورثة المعروفة بنسبية ، نسبة  
إلى « مندل » صاحب التجارب المشهورة في ورثة الحبوب . ومن هـذه التجارب  
تجربة تأثير الأشعة السينية على دباب لفاكهة معروف باسم لدرسفينة  
Drasophila فإن تعريض الدبابة للهـ للأشعة يغير دريتها فتأني مخالعه هـ في لون

حين أو في طول الخناج ويثبت هذا الاختلاف بعد ذلك في أجيال المتعاقبة على  
نسبة المندية المقررة لتنظيم خطة انورته على سبق معروف من الأعقاب إلى  
الأعقاب .

• • •

ويتحدد الآن سؤال قديم هالارم لفكرة الشؤء عند انتشار مدهبه قبل تقدم علم  
الاسلالت . لما هو مدى سريان التطور على الجنس البشرى ؟ هل هناك حد وصل  
بين البشرية والحيوانية ؟ وإذا أمكن عند تحسين أنواع الحيوان معالجة الاسلالت ،  
فهل يمكن استخدام هذه بوسائل في تحسين صفات الإنسان الفكرية  
والروحية ؟ . .

إن استثنائيين قد تساءلوا عن هذا المعامل ، منذ قرروا آراءهم عن التطور على  
قواعد العلوم التجريبية وأجابوا عنه إجاباتهم على حسب عقائدهم مرة وعلى حسب  
أمرجتهم مرة أخرى

فانعدم الرسمي يوافقون بقرار أن تقسيم الأنواع يتناول الإنسان من جانب الحيوانى  
ولا يعرض لحوصه المميزة له في عقائد المؤمنين ، ودارون يقول انه يتكلم عن الأطوار  
التي تؤثر في جسم الإنسان ولا شأن له بما عند ذلك من المنكبات الروحية التي يقررها  
له الدين . وهذه الأخيرة من الشؤثيين سست بالأجوبة الحديثة في بابها على ذلك  
السؤال القديم ، فان ابن سينا - مثلاً - كان يقرر مذهب الطب في الأمراض التي  
نسب إلى نعل الحزن والأرواح الخسنة أو العظية فيقول انه لا يعنى هذا القصر ولكنه  
ينظر إلى آثاره حسدية يرى أنها تحدث الأعراض التي يعالجها بعلاجها الطبي  
لموصوفها عند الأطباء

وبسبب شؤثيون حمدا على مذهب بوفون ودارون أو مذهب بن سينا وأصحابه من  
علماء الزمن القديم ، فان بعض علماء الشؤء محدثين وعلى رأسهم رست  
هكل - ينكرون كل نسبة للإنسان غير نسبتة إلى أنواع الحيوان . ويحلون هذه  
نسبة شجرة تجمع بين القردة بعيد وتزب في حدودها إلى القردة المندية نتي  
نيدش في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية **Martians** وقلد تحتل الحور في

الأقدم انشائية ، ومن دونها ايمور Lemuy قرد مدغشقر ، وهو موصوف في  
شجرة التسم دون قردة و المرموز : الأمريكية

ويرتب المشويون القردة العليا صعودا - من الجيئون إلى الأورنج . إلى  
الشمسرى ، إلى العوريللا ، وقد يفرقون بينها في درجات الرق بحسب اعتمادها على  
تسلق الأشجار أو المشي على أديم الأرض والقدرة على الوقوف واعتدال القامة عند  
سير على قدمين فأدناه ما كان اعتمادها كله على التسلق ومعيشته كلها فوق  
الأشجار ، وأعلاها ما استغنى عن تسلق الأشجار واحتاج إلى استخدام يديه وهو  
ماش على قدميه ، فان نمو الدماغ مرتبط بدرجة العمود الفقري وعظام العنق ودرجة  
لتصرف باليدين عن قصد وإرادته لتحقيق عمل من الأعمال ، ويرغم هؤلاء  
مشويون أن «التطور» الإنسان له علامات تبدأ من قردة الليمور وقردة المرمور  
للذئبة ، وتندرج - صعود - إلى الإنسان حيث يروى لذئب ونمو الدماغ وتتحول  
أيدي إلى أداة صالحة لشاؤن غير مقصورة على المشي أو التعلق بفروع الأشجار  
وعمل تلك العلامات أنها بواحد الخدوش والوقوف واختفاء الذنب ومخالب القدمين  
ويدين

ويذهب أحد المشويين المحدثين إلى القول بأن نوع الإنسان سابق لأنواع القردة  
عادت الأنوف من سنيين ، وأن القردة العليا أسنى ممسوحة فعدت أوائل الصفات  
اشترية ، واتحدت في الصفات العقلية والحسية إلى ما دون تلك المرة بكثير أو  
قليل .

وصاحب هذا الرأي هو الدكتور هيرمان كلاتش Klastsch الذي كان  
يدرس علم الإنسان بجامعة برسلو قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن إنسان حواء  
الذي وجدت بقاياها المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم Pithecanthropus  
هو المرنبة الوسيط التي صعد منها حتماؤها إلى ما فوقها وحيط منها الخلفاء الآخرون  
إلى ما دونه ، ويرغم «كلاتش» أن الإنسان ينتمي إلى أصول متعددة ، ولا يجمع  
كنه من أصل واحد . فاندوليون وقرد الأورنج من أصل واحد ، ورنوج إفريقية

واشمباتزى والعوريللا من أصل آخر ، ولكنه رغم لا تؤيده المقابلة بين هذه الأحياء  
في الخصائص التشريحية ..

• • •

ومن المفارقات أن هؤلاء الشوتيين النسيين م يملفوا بالقرود ذلك الشبه الذي  
تصورته طائفة من الأقدمين قبل انتشار القول بالتطور واشتباك الأنواع والأجناس  
فإن تلك الطائفة من الأقدمين تصورث أن جميع القرود ناسي محمود عقل  
المسهم وبقية هم ألهامهم ، وليس بينهم وبين الناس من فرق غير الفارق الذي  
يباعد بين الكائنات الحشوة والكائنات مسوية من أصل واحدة ولكن شجرة  
النسب تحتاج إلى علم التشريح لالتقاط المشابه التي ترجع القول بوحدة الأصول  
المسدية بين الإنسان وبين أقوم الخلائق من أنواع الحيوانات العليا ..

يقول آرثر كيت - من أكبر التشرييين المتأخرين - في كتابه شجرة نسب  
الإنسان « إن الأستاذ وود جونس لفت النظر إلى بقاء علامات كثيرة في تركيب  
الإنسان قد احتفت من تركيب القرود العبي وعمدة القروود ، وأن هذه القرود العليا  
وسائر القروود قد احتفظت بعلامات شتى رلت من تركيب الإنسان ولست أرى أن  
هذه الشبوبات بسدعى تعديل النسب التي رسمتها هنا ، ولكني أرى أن تفسيرها  
يسفى أن يلتبس في زيادة العداية معهم قو بين البرثة ، فإن الكائنات الحية أشبه  
بأشكال المسيهساء المتدحج يتصل بعض أعاطها بالوراثة ويحتج غيرها بالعوريللا  
تولد في أكبدها المصصات التي تولد في أكباد القروود ، بينما تقترب كبد الأوراس  
أشد لاقتراب في تركيبها من كبد الإنسان ولكني أرى أن يعترض أن هذين  
الحيوانين تحدران من عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبد الحيوان »  
ثم يستعرد إلى بيان الشبه بين الإنسان والقرود الأفريقية فيقول : « إن الإنسان

له على جانبي مجويف لأبى مسسة من الحيوب تسمى بأسماء المصام التي تحاورها  
ولا يسعد أن يعتقد أنها تولد على حدة في نوعين من الحيوب ، ويوجد هذه النمط  
الإنساني في كل من اشمباتزى والعوريللا ، وإن كانت الحيوب في العوريللا وحدها  
قد تحدث لها عطل آخر ، ومن الحائر أن عطلها آخر كان موجودا في أنف سلف

الأورانيج ويصعب التحقق منه بعد انتكاس تركيب الألف كله في هذا العضو الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا . وقد عرف أن دم الغوريلا ودم الشمبانزي أقرب استحابة إلى الانفعال بدم الإنسان من جميع الفقارات . وتبلغ العلامات المشتركة بين الإنسان وكل من الشمبانزي والغوريلا نسبة إلى سائر العلامات التي أحصتها تقدر ثمانية وسبعة أعشار في المائة ، وهذا أتوقع أن يقف من بقايا المتحجرات تكشف يوم في إفريقية تعتبر السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزي والانس .

. . .

هذه هي العلامات الشرجية التي انتهى إليها أصحاب شجرة السب من الشبثيين المتأخرين . وما عداها من العلامات ووجوه الشبه لا يبدو أن يكون إعادة لتصوير المشبه العامة التي يلحقها الطر لأول وهلة بغير حاجة إلى شريح الأعضاء ، وقد أحصاها الأستاذ « شامون شر » Pincher في كتابه عن مهبل التطور ، ثم عقب عليها قائلا : « به لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحه أن يتطور منه تركيب لانسان ، رد كان الانسان قد نما له خلال مليون سنة دماغ أكبر وفاهم أقوم ويد فوق هذا وذاك - أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال » .

وهذا الفصل الخامس هو قصارى مدى الاقتراب بين السبع البشري وسائر أنواع الأحياء بمقياس التطور وعدم الوراثة ، يعبر عنه لشيوي فيقول أنه سبق مليون سنة ، ليلحق به مدى الفارق اللوحي في تعبير الدين .

## التطور قبل مذهب التطور

إن اختلاط الأسباب بين أنواع الحيوان خاطر قديم ندرته الأقدمون من أرمية  
عجولة ، وندرت أمة من أمم السلف البعيد لم تتوثر فيها لأحبار والأساطير عن  
التناس بين أنواع حيوان أو بين لأسباب وحيوان ، أو بين الأنس والجن ، أو بين  
الأنس وأرباب الأساطير المشبهين بالإنسان ومرد هذه الأحبار والأساطير على  
الأكثر - إلى جهن لأوائل بوطائف لأعصاب ، وجهنهم بالشروط الحيوية التي تنرم  
للحمل والولادة وإمكان التناس بين الأرواح مستعدة للتدسل في النوع الإنساني  
فضلا عن سائر الأنواع ، فكل ما يند من نوعه صالح عددهم لتويد من الأنواع  
الأخرى من الأحياء .

وقد سبق لعول متطور وتدرج الكائنات . كما سبق القول تحول الأنواع  
وتناسها .. ولكن لعل غير ثبث أمة ، مردها على لأرحح إلى المفصلة  
والترتيب بين الكائنات على حسب حفظها من حياء أو من مشابهة الأحياء ثم  
نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة ، فكان للعلم عمله في التفرقة بين المواد  
الكيميائية المعدنية ولسانية والحيوانية : وشترت الأحياء وغير الأحياء في صاغت  
الكيمياء ، ثم جاءت في صاغت المتأخرين مقبلة الكيمياء العضوية والكيمياء غير  
العضوية

وما يشه القول بتطور الكائنات وتدرجها قول الفارابي في شرحه لأقوال أعلام  
الأول من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » إن « ترتيب هذه الموجودات ، هو أن  
تقدم أولا أحسها ، ثم لأفصل فالأفصل . إلى أن ينهي إلى أفصلها الذي لا أفصل  
مه . فأحسها المادة لأولى مشتركة ، والأفصل منها الاسطوانات المعدنية ثم  
لبت ثم احيون غير الناطق ، وليس بعد الحيوان انطاق أفصل مه »

ويذهب الفارابي على هذا الترتيب في التفرقة بين الإنسان والإنسان ، بتقدير  
حظه من القوة الناطقة ، ويجبر أن يكون بعض أشبه آدميين بالصورة الحسية غير  
محاسين أو غير أهل للحياة الأخرى .

ويعود الكتي (١) وهو يتكلم عن طبائع المرد « إن هذا الحيوان عند المتكلمين في الطوائف مركب من إنسان وجمعة ، وهو من تدريج الطبيعة من البهيمة إلى الإنسان »

ويقول القروبي صاحب « عجائب الخبوات » بعد تقسيمه الأقسام إلى نام وغير نام ، وهو ما يقابل اليوم تقسيمها إلى نعصوى وغير العصوى ، إن « أول مراتب هذه الكائنات نرب وآخرها نفس منكبة ظاهرة ، فإن المعادن متصلة أوطا بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات وانبثات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالإنسان ، ولنفس الإنسانية متصلة أوطا بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية . »

وهذا الانتقال من المشبهة بالجمعة إلى المشبهة بالإنسان يحسن انشويين المحدثين عند التفرقة بين الإنسان من جملة حيوان ولاسان من جملة المروحي أو جانب القوى الأدبية الوجدانية ..

ويقول إخوان الصفاء في رسالتهم لعاشرة : « اعلم ياأخي أن أول مرتبة النباتية أو دونها هي التراب هي حصراء الدمس وآخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية الحل ، وذلك لأن حصراء الدمس ليست بشيء سوى غير يتبدل على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بهغاء حصراء كأنه سم رخ وحشاش ، فاد تصابها حر الشمس نصف النهار تحف ثم تصبح بهغاء مثل دنت من مداوه الليل وصبب النسيم ، ولا تنب الكماء ولا حصراء الدمس إلا في أيام اربيع في القاع المتجورة تصارب ما بينها . وأما الحل فهو آخر مرتبة النبات من يلي الحيوانية ، وذلك أن الحل نبات حيواني لأن بعض أحواله وأفعاله مما يلي لأحوال انبثات وإن كان جسمها نباتيا وفي النبات نوع آخر فعله أيضا فعل النفس الحيوانية ، وإن كان جسمها نباتيا وهو الأكشوت ، وذلك أن هذه النوع من النبات ليس له أصل ثابت في الأرض كما يكون سائر النبات ، ولا له ورق كأوراقه بل هو يلتف إلى الأشجار والزرروع والبقول والحشائش ويمتنع من رطوبتها ويتعدى كما يفعل الدود

(١) محمد بن شاذلي بن عبد الرحمن الكتي الداراني ولد في داريا من قرى دمشق وتوفي سنة ٧٦٤ وأشتهر بكتبه المطبوعة « نوات الرغبات »



الذى يدب على ورق الأشجار وفصان البات . وإن أدون الحيوان وأنقصه هو  
 بلدى يس له إلا حاسة واحدة وهو الحرون ، وهي دودة في جوف أبوية تست في  
 تلك الصحور التي تكون في بعض سوحل البحر وشطوط الأنهار ، وتلك لدودة  
 تخرج نصف شعصها من جوف تلك الأبوية ، وتبسط يمينه ويسره تطلب مادة  
 تغذى بها جسمها ، فإذا أحست رطوبة ولينا استطعت إليه وإن أحست بحشوة أو  
 صلبة انقبضت وغاصت في جوف تلك الأبوية حذرا من مؤذ لجسمها ومفسد  
 لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، إلا ذوق اللص حسب . وهكذا أكثر  
 الديدان التي تكون في ظلمة في قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا  
 ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضو لا يحتاج إليه في وقت جر  
 المنفعة أو دفع المضرة ، لأنه لو أعطاهم مالا يحتاج إليه لكأن وبالاعية في حفظها  
 وبقائها . فهذا النوع حيواني ساقى لأنه يبت جسمه ، كما يبت بعض البات ،  
 ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له  
 إلا حاسة واحدة فهو أنقص حيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضا هي التي يشتركها  
 النبات فيها ، وذلك أن النبات له حس اللص حسب .

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع والخامس للهجرة في كتابه تهذيب  
 الأخلاق يعنون لأجسام الطبيعية . وإن لأجسام الصيغية كنها تشترك في الحد  
 الذي يعملها ثم تتفاضل بقبول الآثار لشريعة وانصور التي تحدث فيها ، فإن الجهاد  
 منها إذا قل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التي لا تقل  
 تلك الصورة . فإذا بلغ إلى أن يقل صورة النبات صار بريادة هذه الصورة أفضل  
 من الجهاد ، وتلك الريادة هي الاعتناء والتميز والامتداد في الانقراض واجتذاب ما  
 يوافقه من الأرض والماء وترك ما لا يوافقه ونقص المصبرات التي تتولد فيه من  
 جسمه بالصموع ، وهذه الأشياء التي ينقص بها النبات من الجهاد ، وهي حال  
 زائدة على الجسمية التي حددتها وكانت حاصلة في الجهاد ، وهذه الحالة الزائدة في  
 النبات التي شرف بها على الجهاد تتفاضل ، وذلك أن بعضه يدرك الجهاد معارفة  
 يسيرة كالرحبان وأشباهم ، ثم يتدرج فيها فيحصل به من هذه الريادة شيء بعد شيء  
 فبعضه ينبت من غير ررع ولا يذر ولا يحفظ نوعه بالفر والبسر . ويكفيه في

حدوثه مترج لعناصر وهوب لرياح وهدوء اشمس ، فذلك هو في أفق الجادات  
 وقريب الحال منها ، ثم تزداد هذه العصبية في اسات . فيحصل بعضه على بعض  
 بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة لأتار وحفظ لنوع بالدر لدى يخلف به مثله .  
 فتصير هذه الحالة رائده فيه وعميرة له عن حال ما قبله . ثم تقوى هذه العصبية فيه  
 حتى يصير فصل اثالث على الثالي كفصل لثالي على الأول ، ولا يزال يشرف  
 ويحصل بعضه على بعض حتى يبلغ إلى ألقه وبصير في ألق الحيوان . وهي كرام  
 الشجر كالريتون ، ورماد ، وبكرم ، وأصاف بمواكه إلا أنها  
 بعد محتطة لقوى ، أعني أن قوى ذكورها وإناثها غير متميزة . فهي تحمل  
 وتلد المثل وم تبغ غابة ألقها لدى ينصل بألق الحيوان ، ثم تزداد وتمس في هذا  
 لألق إلى أن تصير في أفق حيوان فلا تحتل ريده . وذلك أنها لم تست ريادة  
 يسيرة . صارت حيوان وحرحت عن أفق لثالث فحدثت تغير قوها وغصل فيها  
 ذكورة وأبوثة ونقبل من فصائل الحيوان أمور تتميز بها عن سائر اسات ولشجر  
 كاللحل الذي ضالع أفق حيوان بأخوص اعشر مذكوره في موضعها ولم يبق  
 بينه وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة وهي الاصلاح من لأرض وسعى إلى العداء  
 وقد روى في الخبر ما هو كالأشارة ، وكذا مر إلى هذا معنى وهو قوله صلى الله عليه  
 وسلم « أكرموا عيالكم الحل ، فاسما حقت من بقية صفة آدم »  
 ويستطرد من مسكويه إلى ذكر الحيوان بما شبه قول المحدثين عن سلحة  
 حيوان في تنازع اسقاء ، فقوله من الحيوان « إن كان صعبا لم يضر سلاحا  
 الله ، بل أعطى آلة الحرب كشدة العدو وانقدره على الحل التي تجبه من تخوفه .  
 وأنت ترى ذلك عباد من الحيوان الذي أعطى القرون التي تجري له بحري بمرح .  
 ولدى أعطى الأساب والمخالب التي تجري له بحري سكاكين والمخاخر ، والذي  
 أعطى آلة لرمي التي تجري له بحري سن ونشاب . والذي أعطى الخواصر التي  
 تجري له بحري الدبوس والطيررس . فأما ما لم يعط سلاحا لصعبه عن استعماله  
 وقته شجاعته ونقصان قوته العصبية ، ولأنه لم يعطيه بغير سلاحه ، فقد أعطى  
 آلة حرب وأحيل بجوده العدو والخفة والحيل والنروعة كالأرانب وثباجها ، وأما  
 الأسماك فقد عوص من هذه الآلات كلها بأن هدى إلى استعمالها كلها »

ثم يتدرج إلى أقرب الحيوان إلى الإنسان ، وهو : الذي يحكى الإنسان من تمام نفسه وينشئه به من غير تعلم كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تستكنى في التأديب بأن ترى الإنسان يعمل عملاً فتعمل مثله من غير أن تحرج الإنسان إلى تعديها ورياضة لها . وهذه غاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقبل زيادة بسيرة ، خرج بها عن أفقه وصار في أفق الأسماك الذي يقبل العقل والتفكير والمطلق والآلات التي يستعملها وانصهر التي تلائمها

« ولا يقف انتشارح عند أفق الإنسان ، بل يعدرس الناس بين أم لا تشير عن القرد إلا بمرتبة يسيرة ، وأهم تزايد فيهم قوة التفكير والفهم ، إلى أن يصيروا إلى وسط الأفيم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للمصائل ، وإلى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله عز وجل بالمخسرمت ، ثم يستعد هذا القبول لاكتساب العضائل واقتنائها بالأرادة والسعي والاجتهاد الذي ذكرناه فيما تقدم . حتى يصل إلى آخر أفقه . فإذا صار إلى أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مرتبة الإنسان . وعنده تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها وهو لدى يسمى دائرة الوجود ، لأن السائرة هي التي قيل في حدها أنها خط واحد يتدنى بالحركة من نقطة وينتهي إليها بعينها . ودائرة الوجود هي المتحدة التي جعلت الكرة وحدة . وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على موجدتها وحكمتها وقدرته ووجوده ، شاولك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره »

إلى أن يقول مخاطب طالب المعرفة : « وحدث لك الإيمان الصحيح وشهدت ما عاب عن عيرك من الدهماء ، وبلغت أن تتدرج إلى العيوم الشريفة المكنية التي مبدؤها نعم المنطق ، فانه الآلة في تقويم الفهم والعقل العريزي ثم انوصول به إلى معرفة الخلائق وطاعها ثم التعلق بها والتوسع فيب واتوصل منها إلى العيوم الإلهية ، وحيث تستعد لتقيس مواهب الله عز وجل وعطاياه ، فيأتيتك لتقيس الإلهي ، فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلاحظ المنة التي ترفيت منها أولاً من مراتب الموجودات ، وعرفت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما سبها في وجودها ، وعلمت أن الإنسان لا يتم له كيانه إلا بعد أن يصل إلى ما قبله وإذا صار إنسان كاملاً وسع غايته أفقه أشرف نور الأضواء الأعلى عليه ، وصار إما

حكماً تاماً تأتبه الاهتمامات فيها يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة والتأييدات العلوية في  
التصورات لعقيدية ، وإما بيبا مؤيداً يأتيه لوحى على صروب المنازل التي تكون له  
عدد له تعالى ذكره ، فيكون حيثل وسطه بين المثل الأعلى والمثل الأسفل .  
ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنعمين . »

ومحوى كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعي ينتهى إلى غاية وسع الطبيعة من  
ترقية الحسد وانعدام حسه وعصائه ، ثم يبدأ الترقى بالعقل والخلق من أفق الحيوان  
إلى ما هو أعلى وأرفع وأقرب إلى المثل الأعلى

ولابن مسكويه بحث كهذا في كتابه « النور الأصغر » يبدأ فيه من امداءة ،  
وهي ما سبأ بالمركز فيفسون « إن أول أثر ظهر في عالم هذا من نحو المركز بعد  
امتزاج العناصر الأولى أثر حركة النفس في اسباب ، وذلك أنه تميز عن الخباد  
بالحركة والاعداء ، واللوات في قلوب الأثر مراتب مختلفة لا تحصى ، لا أنها مقسمة  
إلى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، ليكون الكلام عليه أظهر » . ثم  
يسمى كما انتهى بكلامه في سديم الأخلاق إلى آخر مرتبة الحيوان وهي « مراتب  
الفرد وأشاهها من حيوان اسى قارب لانسال في حنفته الانسانية ، وبسبب بينها  
إلا اليسير الذى إذا تجاوزته صار إنساناً »

• • •

وأشار ابن خلدون إلى هذه التدرج أو التطور فترقى به من المعدن إلى القرد  
إلى الانسان ، وعن اختلاف الناس سائير الإقليم وأحوال المعيشة على الابدان  
والأخلاق .

قال « إن عالم التكوين ابتداء من المعدن ثم لبيت ثم لحيوان على هيئة بدية  
من لتدرج آخر ألق المعدن متصل بأول أفق المساب مثل الحشائش وه لا بدور  
له ، وآخر أفق لبيت مثل المحل وانكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل  
الخبرون والصدف ولم يوجد لها إلا قوة انميس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه  
المكورات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق اسى  
بعده . واتسع عالم الحيوان وتعهدت أوعه وانتهى في تدرجه التكويني إلى لانسال  
صاحب الفكر والرويه ترتفع إليه من عالم القردة الذى اجتمع فيه اخس والادراك ،

وتم ينته إليه الفكر واثروية بالفعل . وكان ذلك أول أفق الانسان من بعده .  
وذلك غاية شهودنا .

ويبقى ابن خلدون أوهام القائلين بسببة الألوان والطباع إلى الدعوات أو  
البعثات ، فيقولون إن « بعض السايين من لا علم لهم بطباع الكائنات ، توهم أن  
السودان وهم ولد حام بن نوح اختصوا بنون اسوداد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر  
أثرها في لونه رفيا جعل الله من الرق في عقبه . ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع  
في لتوراة ، وليس فيه ذكر لسواد . وإنما دعا عليه أن يكون وبه عبيدا لولد  
إخوته لا غير . وفي القوم نسبة السواد إلى حام علة من طبيعة اخر واثروا في  
الموت » وفيما يتكبر فيه من الحيوانات .

ويقول في موضع آخر « استولى حمر على أديانهم وفي أصل تكويرهم ، فكان  
في روحهم من الحرارة على نسبة أديانهم . وكذلك يلحق بهم قليلا أهل بلاد  
البحرية لما كان هوقها متضاعف الحرارة عما ينعكس عليه من أصواء بسيط البحر  
وأشعثه »

ويصحح بعض المتضمنين ما نقله يسبق إلى الوهم من القوم بتدرج الكائنات ،  
إذ يحيل إلى المأهدين بمصداق أنه يعني الكائنات في درجة درجة من مراتب المراقبة ،  
وإنما حقيقته كما قال الخازني : « إننا إذا قمنا إلى لاسان بلغ حد الكمال وكان يوما  
عجلا فصار حارا فعدا حصار فأصبح بعده قردا ، فليس معنى ذلك أنه كان يوما  
عجلا فصار حارا فعدا حصارا فأصبح بعده قردا حتى صار في النهاية إنسانا »  
فليس عندهم من الضروري أن يكون كل كائن ربيع قد تعمل قبل ذلك بين  
أطوار الكائنات التي هي دونه ، وإن كان جميع المتكلمين في أطوار الكائنات الحية  
لا يجمعون إمكان التصاعد بين الحشرات والحيوانات المختلفة ، كما جاء في كتب الحيوان  
جميعا ، وأسهب في الجاحظ على الخصوص . وسنم في من كثير من خرافات  
المتقدمين عليه واللاحقين به في هذا الباب ، وأكثرهم ترديد هذه الخرافات لقروني  
صاحب عجائب المخلوقات . فهو حافل بالأساطير عن احتلاط أنواع الأحياء ،  
وعن الخلائق الأسطورية التي انقرضت ولم يبق منها غير آثارها وأخبارها ، وعجائب  
المخلوقات التي تنوفا الأحاديث عن وجودها في الأطراف النائية التي لم يصل إليها

أحد غير من صل طريقه أو ججحت به السمن من الملاحين والمعربين ، وهذه الأساطير كى قد فى غير هذا الكتاب<sup>(١)</sup> نفعنا الآن أكثر مما نفعنا حقائق تلك الكتب ، لأنها هى لبقية الباقية ناس تلك الأوهام التى تسلط على العقل الشرى فى أزمانه الخالية ، وهى المفتاح الذى ليس لديه مفتاح سواء لخزانة الخيلة ، وما أكتنه من تصورات الإنسان ووجدانه وما استطاع به من الدلائل العميقة المتعلقة به لى عودتنا أن نتطرق بالأحاجى والأمنار وسهم حتى على صاحبها وهو الذى أوجدها وصورها . وهذا الكتاب الذى نحن بصدده مكثف بمصطلح أنواع هذه الحيوانات وما شاكل منها فى الرواى الحر . منها كتب الماء وقصد الماء وبقرة الماء وفرس الماء . وزعموا إنها تلك من حيل الأرض ، ومنها إنسان الماء ويشبه الإنسان إلا أن به دناء وقد جاء شخص براحده منه على قول القوريقى - إلى بغداد فعرضه على الناس . وذكر أنه فى بحر الشام بعض الأدوات يصنع من ماء إلى الحاصرة إنسان ، وهى خيفة يصعد يسمونه شبح البحر وينبى أياما ثم ينزل ، فإذا رآه الناس يستشرون بالخصب . وحكى أن بعض الملوك حمل إليه إنسان مائى فأراد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الأنوبى ، فقيل للولد . ماد نقول أبوك قال أدباب الحيوان كلها على أساقها فعا بال هؤلاء أدبابهم على وجوههم ونقل عن يعقوب بن اسحاق السراج أن رجلا ركب البحر فألفقه الريح إلى جزيرة . فأتى قوم رجوعهم كوجوه الكلاب وسائر أدبابهم كأبدان الناس . وهذه الأساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل خيطة فى فهم الصورة البعيدة يرمب أو مكابها ، وقد تدرس على أنها ترجعان للنوعى الباطل الذى استقر فى أعماق بديهة الإنسان وعرائره الورثية ، ولا بد أن تدرس فى جميع الأحوال لأى ما يصح أن يعتبره مسودات ، بلادراك الإنسانى تظهر فى كل عصر ولا تزال فى كل عصر معلقة بين الشك واليقين وبين الوهم والصدق فى انتظار التصحيح والتنقيح .

(١) كتاب العصور لسنويف

## أثر مذهب النشوء في الغرب

قوبل إعلان مذهب النشوء في الغرب بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير في اليئات المسيحية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على إعلان هذا المذهب أن حملات الدينيين عليه في البلاد العربية لم تكن أحدى ولا أليق بسببها الدين أو العلم من أشبه هذه الحملات التي قوبل بها في بلادنا الشرقية يوم انتقل إليها للمرة الأولى ، كما سنبينه فيما يلي :

نقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقي الأثر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات . وحوكم الأستاذ سكوب في دابتون ( شهر يوليو سنة ١٩٢٥ ) لأنه حالف القانون الذي حرم تدريس المذهب المخروجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التي سجلت أثناء المحاكمة بين محامي المدعى ومخبر الاتهام :

- هل تقرر أن كل ما ورد في التوراة يبقى أن يقبل بتصويره الحرفي .  
- أنا أقول أن كل ما ورد في التوراة يسمى أن يقبل كما ورد فيها . وبعض ما جاء في التوراة قد ورد في سياق التشبيه ، كقولها : « إنكم منح الأرض » . فلا امتنرم من ذلك أن الانسان كان ملوحاً أو أنه كان له دم من المنح ، ولكني أفهم كما أفهم معنى شعب الله المختار .

هل لك أن تخبرني يا ماستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟

- كلا يا ماستر ، . ستة أمدى .

- ولا على وجه التقريب ؟

- لست أحاول . ولكن أقرب من تقدير العلماء ، ولكني أحب أن أدقق كثيراً

قبل الجواب .

- إنك لا تعياً كثيراً يا لعلماء . . أتعاً بهم حقاً ؟

- نعم يا ماستر . .

- أتعصد أن الكرة الأرضية صنعت في ستة أيام .

سنة أيام نعم . ولكنك لست أيام لأربع والعشرين ساعة

• • •

وقد احتدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع المريدان إلى التشهير بالعقائد  
اشائعة والمذهب العلمية التي كانت مباحة للماشرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر  
الصيحة التي رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه المحاكمة أن قانون التحريم  
سقط بالاهمال ثم بالالغاء .

إلا أن الباحثين اندسين عدوا أحياء عن لتحريم بقرة لقانون إلى مناقشة المذهب  
بالراهين العلمية ، فأحد مهم فريق في تفسير المذهب بالمعنى الذي يوافق الرويات  
الدينية معديها الزمرية ، وأحد الفريق الآخر إنكاره بالأدلة العلمية التي استند إليها  
العلماء ولا يزانون يستندون إليها إلى هذه الأيام .

فصدر بعد الاحتمال ناقصاء ستين سنة على إعلان المذهب . كتاب من كتب  
ابحث البعض على الطريقة الدينية ألفه الأستاذ . ب . يشوب وسماه « الشوه  
مستعدا »<sup>(١)</sup> ولم يترجح فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما  
يتناول الفترات التي اضطرب فيها روايات التاريخ كالفتره بين الفصائل ووفود الخيل  
إبراهيم إلى كعبان ، وأخرج منها لفترات التي لا تتعارض فيها النصوص ولشوهده  
الحيولوجية ، ثم بيى انتقاده للمذهب على مطالعة الشوثيين بالدليل لأن العصور  
الحيولوجية لم تتكشف فقد عى أساس يخالف في تكوينه الثابت تكوين نوع  
الإنسان في صورته الحاضرة ، ولم تنق من آثار الطوراني . الحيولوجية بقية من أنواع  
الأحياء الأولى ، بل يرجح أن أقدم هذه العصور لا يعود بنا إلى مسافة أبعد من  
منتصف الطريق . كما رأى رالاس شريك دارون . حيث يقول في كتابه عن عدم  
الحياة « إنه من المحتمل جدا أن السجلات جيولوجية الباقية لا تحملنا إلى أبعد من  
منتصف العمر الذي عمرته الحياة على الكرة الأرضية »

فلمس في السجلات الحيولوجية دليل ولا قرية تؤيد القول بتطور الاسماك من  
نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمام دليل يؤيد تحول الأنواع في عالم الحيوان  
أو عالم النبات ، وإن نشبه الأجنة التي يحمده بعض استوثيين دليلا على التشابه



أقدم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الأجنة الصحيحة لا تبرر هذا شبه ، وماعدا ذلك من صور المنشأة فهو مرور باعتراف واضح تلك الصور العام الألفى أرست هكل ، فيه أعس بعد لتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر إلى تكه شبه في هو ثمانية في المائة من صور الأجنة بنقص الرسم منقول

وم يدع يشوب دليلا عميق يعبر تعقب عليه ، يستند إلى أقوال العلماء المختصين فقد إن حصان خفريات على أقدم صورة هنا ثبت من ستة إلى سبع الخيل غير الأسن ، وإن الصدر الذي قيل إنه حلقة المفقودة بين الزواحف ولطير لم يتبعه قط في تسلسل خفريات طائر ذو أسن ، وأيا كان نظام التطور بالنسبة إلى الخلق فالعام المشغول الأمين على عبه لا يتحده سد من أسباب الاتحاد ، وكذلك كان والاس مؤمنا بالعقل المدبر كما قال في كتابه عن عالم الحياة ، رد بقرر جارما باعتداده « إن ما تنطه - إطلاقا - ولا مدح من الاستدلال عليه ، هو ذلك العقل الذي هو أعلى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المنهكة التي تراها حوسا وإنه يعقل لا يقدر على تفسير هذه القوى العاملة في الأنوع الحية وعلى إرشادها وتديرها وحسب ، بل إنه هو يديه يسوع بنث القوى والعو من ، ويسوع لما هو الأساس الأول لكل ما في هذه العوالم المادية » .

\*\*\*

ويؤخذ من متابعة الفترات التي يستعاد فيها النقاش حول أصل لاسن أنها ترتبط بمحن « الروحية » التي تثيرها مشكلات العالم الكبرى ، وأكبرها في القرن العشرين مشكلة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، وقد تكون لماسة لاستعادة النقاش تدرجية من قبيل الدكرات الموقوتة بالعشرت أو بالمئات من السنين ، ولكنها إنما تستعاد في هذه المناسبات نبواعث الشكوك والمنازع التي تصاحب الحروب العالمية والعس الاجتماعية ، ولهذا كانت هبة الحرب العالمية الثانية دورا من أهم أدوار البحث في مذهب الشوء عما دعت إليه من بحوث منشعة في تنازع القضاء وإرادة القوة ، وفي تفسير التاريخ بعوامل الاقتصادية أو لعوامل الفكرية والروحية ، وفي هذه السنة ١٩٤٥ - تدفقت الكتب التي تعرض هذه

امسحت بأقلام علماء الطبيعة وعمماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات اللاهوتيين في هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين في جميع العلم وشواهد التجربة وصدق النظر في تقوا الأنصار والخصوم ولعل أجمعها فيما اطلعنا عليه كتاب « الله والإنسان والكون »<sup>(١)</sup> الذي توفّر على تأليفه بحجة من الباحثين الدينيين بمرصون وجهات النظر الكاثوليكية ، في تحقيق كل فلسفة تبحث في الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الإنسان وأصل النظم الاجتماعي وما يشتب عن هذه الأصول من البحث في مشكلة نشوء تاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية اندكسية وغيره من مشكلات لاسان التي توالى في كل زمان بأسلوب وعون

•••

وقد استفاد مألوف هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التي نشرت بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن متداولة بين الكتاب اللاهوتيين في الربع الأول من القرن العشرين . وأمعوا في التعصيلات التشرىحية التي كانت بحملة في الفروق لواسعة بين تركيب الفرد وتركيب الإنسان . ولا سيما المراق المميز للإنسان المناطق . وهو قوام الفصل بين النوع الأدنى وعامة لأنواع العيب .. فهذا المراق الواسع في الملكات العقلية يقلبه مراق دقيق في تكوين الدماغ ، يبين استحالة انطق بعير هذا التركيب الإنساني الخاص بدماغ الإنسان دون سواه . فدرأس الإنسان يمتوى جميع المناطق التي وضعناها في رموس القرود ، ولكنها تتخصص بمناطق أخرى تسمى بالمناطق الثانوية أبرزها تلك المنطقة الخاصة بمراكز لأصوات الكلامية ، وهي مستحيلة بعير الاتصال الوثيق بأحجهر الكلام من عضلات الوجه والفم واسعوم مع جهاز التنفس سواء من جانب حركات الحس ومراكز التمس والسمع بل انبصر كحدث . فهناك مركز للنطق في مقدمة مراكز الحركة في الوجه ، ومراكز بصرية للكلام في لمصفا جدارية ، ومراكز سمعية في الفص الصدعى ، وفقدان مراكز حركة يستشع العجز عن حركات استهبة الصرورية المنطق بعير

معظم عمل بسبب والشعير كدب. تستمع اذنت البصر عجزا عن معرفة الكلمة المكتوبة ، كما تستمع اذنت السمع عجزا عن فهم الكلمة المنقولة وإن يسر سماعها . ويضاف إلى هذه مراكز مراكز أخرى حتمية يرى بعضهم أنها مقر لأدق الوظائف السيكلوجية . ولا يوجد غير الشمياترى بين القرود المعاصرة حيوانه به مناطق ثابتة ذات امداث جيد مصحف .

•••••

وعلى هذه التوتيرة المطردة يؤدي هؤلاء العلماء اللاهوتيون أمانة العلم الطبيعي ، لإبرار موضع الشبهة في أدلة مذهب اششوء وقرائه التي ترتفع إلى قوة الدليل ، فهم يوسعون لحدود غلبة التوسع المحتمل في حدود لمقررت انعلمة ، ولا يدعون فارقا حقا منها وصحوة وكبروه وينقوا به غابة الشك . وباعدوا عاية العدد به وبين مرجحات اليقين ، وم يقصروا دسك على الأدلة أو القرائن التي يستند إليها الشرطيون للقول بتحول نوع الانسان من الأنواع الدب . من شمسوا به كل دليل وكل قرينة تدعم فروص التحول بين نوع ونوع من الحشرات والأسماك والبروحف وانطوبور والفقاريات، ومنها المتسقات وغير المتسقات .

•••••

وقول مذهب اششوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه بالأدلة العسبة . وطلبوا من دعائه دليلا محسوما على فعل الانتجاب الطبيعي في تحول الأنواع . ولا سيما نوع الانسان فالتعرضون عليه طلبا للأدلة الصبعية - لا يقنون عددا ولا عرصا عن المعترضين اللاهوتيين وقد أيدوا أسس من كبار علماء الطبيعة وتحمسوا لتأييده ، فكان تحسهم به باسم حرية الرأي أشد من تحسهم له إيمان بحقيقته واعتقادا بكفاية براهيه في هؤلاء لعلماء-بل من أشدهم حماسة له-توماس هكسلى صديق دارون وصهره ومدره<sup>(١)</sup> المذهب كنه في حياته، فإنه لم يرعم قط أن أدلة الانتخاب الطبيعي تؤيد تحول الأنوع كفاية لتقرير هذه النتيجة ،

(١) مدره القوم والمذهب هو ادماع عه الذي يدرا عنه كل هجوم وعدوان

ولمّا كان يقول إن الانتحاب الطبيعي يفسر لنا جملة من الظواهر والمشاهدات تبقى  
 غير تفسر لو لم تقبل مبادئ الانتحاب الطبيعي كما عرضها دارون بعد تعديده لآراء  
 لامارك، ويرى ألعام البيولوجي الكبير أن نظرية التطور على أساس الانتحاب  
 الطبيعي إنما هي نظرية منطقية وليست بانظرية التي تعتمد على شواهد لتجربة  
 ولأدلة حسية. قال في رده على هربرت سبسر: «إسألني استطع أن أثبت  
 بالمشاهدة عمدة الانتحاب الطبيعي» وأن قوب هربرت سبسر: «إنه بما أن تحدث  
 وراثاة للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الإطلاق» أي هو دليل منطقي وليس  
 دليل التحريبي، وهو مع ذلك ليس بالدليل الحزمي وقضايا المنطق، لأن تعليل  
 التطور بعير وراثاة الصفات المكتسبة ليس بالفرض المستحيل

\*\*\*

وبقيت هذه العقدة عصبية لحن على الثنائيين بالتحول الوعى إلى اليوم، فلم  
 يتقدم أحد من النشويين عند الاحتفاء بذكرى كتب أصل الأنواع (١٩٥٨)  
 مدح حاسم لشكوك المترددين في قبول تحول الأنواع. وقد كتب دوبرسكى  
 Dobzansky أشهر مختصين بالبيولوجية النوعية فصلا عن الأنواع بعد دارون في  
 مجموعة «فرون من دارون» فلم يحاول تهوين القضية، وبك راد أسباب  
 جديدة ليدن الصعوبات التي تحول دون تلاقى السلالات والصعوبات في أرحام أفراد  
 الحيوان الشميرة، وراد أسباب أخرى ليدن الصعوبات التي تحول دون تلاقى لفردين  
 من نوع واحد أخذ في لتعدد والاختلاف، ومن ذلك نقص الألفة بين الذكور  
 والإناث كما اتعدت أشكالك ولو بقيت بسلاتها وصغياتها قابلة للتزاوج والانقسام  
 إلى تمام تكوين الجنين

\*\*\*

وآخر ما نعلم من أطوار هذه المشكلة أن البحث عن الحلقة المفقودة، يتفلل لأن  
 من سلسلة الأنواع إلى سلسلة اناسلات Genes ولصغيات.. وأن الأمل في  
 الوصول إلى هذه الحلقة من استقصاء تاريخ اناسلات phylogeny أقرب في رأي

البيولوجيين من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألف الأستاذ برنارد ريشر أستاذ علم الحيوان بجامعة ميونسر كتابه عن التطور فوق مستوى الأنواع<sup>(١)</sup> ليشرح هذه الفكرة ويبين أن عزز النوع إنما يتم بالانحلال بامتلاكه وأن البحث في تاريخ تغير السلالات هو مرجع البحث الأصيل للوصول إلى الحلقة التي تفصل بين ما تقدمها وما تلاها ، وتنشئ شروطاً جديدة للتسلل والوراثة فتعتبر بذلك حداً فاصلاً بين برعين . فليس من السهل أن تتغير تحول الأنواع بعد تطورها وابتعاد أواخرها من أوائدها الموعلة في تقدم ، ولكن إذا اكتشفنا سر تطور السلالات وانعزالها بمصائص التوريث دمة واحدة أو على درجات متقاربة فما هنا محل الحلقة المفقودة في سلسلة الأنواع .

## مذهب التطور في الشرق العربي

من خصائص مذهب داروين على ما يظهر أن يشيع على نحو واحد قبل الوقوف على شروحه وبراهينه . وأن يثير صرورا متقاربة من الاعتراض في مواطن العقيدة والثقافة العامة . فإنه لقي في الشرق العربي مثل ما لقيه من التحريف والاعتراض في البلاد الأوروبية . حيث أدوار السماع به ثم الاشاعة عنه ثم الرد عليه بين معكرين ونفر . اعلم شرقيين كما تناهت قبل ذلك بين معكري العرب وقرائه . وتكرار هذا كله في شرق العربي كأنه يحدث للمرة الأولى . ولم تنفخ شهباته عن حقائقه إلا بعد اشوره الصاخبة التي يظهر كما أسلفنا أنها مقدمة لابد منها وأثر من آثار الصدمة الشعورية المفاجئة لا يحصى عنه .

وبما تصدى لرد عليه في الشرق لاسلامي عامة ، والشرق لعربي خاصة ، بحبه من معكرين وفاده الاصلاح والمجتهدين من أمتاع جميع الأديان للكتابة ، وناقشوه كما شاع لأول وهلة بين العربيين من قبل كأنه مذهب يستلزم إنكار الخلق ويرغم أن المرده حدود بشر أجمعين ، فكل إنسان حديث فهو سبل متأخر بقدر قديم .

وقدما يتصور القارئ العصري أن مذهب كمذهب التطور يشيع في الشرق العربي قبل مائة سنة ، ويتصدى لرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذي بقيت لنا بعض كتابه وأطوى أكثرها في روايا لطبوعات المهجورة من المصنفات ونشرات الصحفية . لأن القارئ العصري يحسب أن مذهب التطور قد وصل إلى الأمم الشرفية وهي في « جاهلية » لا تسعها دعوة عالم أو مفكر من أبناء الأمم لأجبية ، ولكن الواقع أن « جاهلية » القرن لتاسع عشر تم تكبر في شرق لعربي حجاب دون المذاهب الفكرية التي يطنع عليها الأوربي المثقف في حينه ، ولم يكن مذهب كمذهب التطور ليحرب في حيز محدود بين جدران حصن واحد وهو يتحدث عن سبب الإنسان حينما كان ، في زمن يتحدث فيه الناس عن شيء كما تحدثوا عن مفاسد الأمم بالأصوب الإنسانية ولأننا التي يدعيها السادة لأمتهم ويكرهونها على الرعايا المستعبدين

وسنحتار في هذا الفصل أمثلة من مناقشة المذهب كما فهمه في ذلك العصر أصحاب لاختراد ورواد تفكير من المسلمين والمسيحيين، ومنهم أهل السنة والجماعة. وأتبع الكنائس الشرقية والعربية في بلاد العالم العربي، وقد وصفت أصداء برود التي كتبها المشهورون من أولئك المفكرين إلى أطراف البلاد الإسلامية في هذه والصين.

قال السيد جمال الدين الأفغاني من أئمة المصلحين من أهل السنة في كتاب الرد على الدهريين،

«رأس القائلين بهذا القول دروي وقد ألف كتابا في بيان أن الإنسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تنالي القرون المطاوعة وتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ أودان أوتان، ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الإنسان فكان صعب الجسم وسائر الرعج، ومن هناك خرج بعض أفرادهم إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنحين فكان الإنسان القوقاسي وعنى زعم داروين هذا، يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكثر الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك.. فإن مثل داروين عن الأشجار لقائمة في غابات الهند والساتات المتوعدة من أزمان بعيدة لا يحدها التاريخ، إلا ظنا، وأصولها تقرب في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد، لما السب في اختلاف كل منها عن الآخر في بيته أو أشكال أوراقه وطوره وقصره ومصحفاته ورفته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره، فأى فعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء؟.. أظن لا يسيل إلى الجواب سوى المحرجه.

«وإن قيل له هذه أمهالك بحيرة أورال وبحركسيين تشاركها في المأكل والمشرب وتسبقها في ميدان واحد، ترى فيها اختلاف نوعي وتدينا بعيد في الألوان والأشكال والأعمال فما السب في هذا التباين والتفاوت، فلا أراه ينجح في الجواب إلا إلى الحصر..

«وهكذا لو عرصت عليه الحيوانات المختلفة لبي ونصور وتقوى والخواص، وهي تعيش في منطقة واحدة ولا تسلم حياتها في سائر المناطق من العشرات المتباينة

في الخلقة ، المتباعدة في التركيب ، المتولدة في بقعة واحدة ، ولا طالة لها على قطع المسافات البعيدة .. فلماذا تكون حجته في عمة اختلافها . بل إذا قبل له أي هدى هدى تلك الجرائم في نقصها وحداجها .. وأي مرشد أرشدنا إلى استنهام هذه الخوارج والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وإبداع كل منها قوة على حسبه ووطئها بكل قوة في عصبها أداء وظيفته وإعداد عمل حيوي بما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف عنده الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه ، وكيف صارت انصورية العمى معلما لتلك الجرائم وهاديا حيرا بطرق جمع الكمالات الصورية والمنوية . فلارب أنه يقع قبوع القفد ويتكسر بين أمواج الخيرة ، ينغمه ريب ويتلفاه شك إلى أبد الآبدين ..

وكان في هذا المسكين وما رماه في بحاميل الأوهام وبحاميل الخرافات إلا قرب المشابهة بين الفرد والاسد ، وكان ما أخذ به من الشبهة الواهية ألهمية يشعل بها نفسه عن آلام الخيرة وحمرات العناية .

وإنا نورد شيئا مما تمسك به ، فمن ذلك أن الخيل في سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة في البلاد العربية ، وإنما علة ذلك لضرورة وعلمها . ونقول : إن السبب فيها ذكره هو عين السبب لكثرة البعث وقتنه في بقعة واحدة لوقتئذ مخنمين حسب كثرة الأمطار وقتنها ووفرة مياه وبرورها أوجد علة الحفاة ودقة العمود في سكان البلاد الحارة . والفضخامة والسمن في أهل البلاد الباردة بما يعتري البدن من كثرة التحلل في الحرارة وقتنه في البرودة

ومن واهياته ما كان يرويه داروين من أن جماعة كانوا يقطعون أذنان كلابهم ، فلما واطبوا عن حملهم هذا قروما صارت الكلاب تولد بلا أذنان .. كأنه يقول حيث لم يجد للذئب حاجة كمت لطيفة عن هبته ، وهل صحت إذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يحروبه من الختان ألوما من السنن ، لا يولد مولود حتى يمتحن وإلى الآن لم يولد واحد منهم مخنن إلا لإعجاز

ولما ظهر الحاجة من متأخري الماديين فساد ما تمسك به أسلافهم ، بدوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة . فقلنا ليس من الممكن أن تكون المادة لعارية عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئة البديعة والأشكال العجيبة والصور الأبية



وغير ذلك مما حتى مره وظهر أثره ، ولكن العنة في نظام الكون علويه وسعليه .  
والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوارها وما يلزم ببقائها تركيب من  
ثلاثة أشياء متبير ، وفورس ، وإطيجانس ، أى مادة وقوة وإدراك ، وطنوا أن  
المادة بما لها من القوة وما يلامسها من الإدراك تجلت وتجل بهذه الأشكال والهيئات ،  
وعندما تظهر بصورة الأجساد الحية نائية كانت أو حيوانية تراعى بما يلائمها من  
الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتتبنى لها من الأعضاء والآلات ما  
ينى بأداء الوظائف الشخصية والوعية مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة والفصول  
السنية . هذا أنفس ما وجدوا من حيلة لمدهم العاطل بعد ما دخلوا ألف حجر  
وأخرجوا من ألف نفق ، وما هو أقرب إلى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمطبق  
على سائر أوصوهم ، فانهم يرون كمسائر المتأخرين أن الأجسام مركبة من الأجزاء  
الديمقراطية . سعة إلى ديمقراطيس - ولا يطبق رأيهم الحديد في هذا النظام  
الكوني على رأيهم في تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن  
يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص ، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة بفصل  
ها عن سائر الأجزاء ، إذ لا يمكن قيام العزم الواحد وحدة شخصية محليين ،  
فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا بأجزاء .

١ وبعد ذلك فأتى سائلهم كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة مع انفصالها  
على مقاصد سائر الأجزاء . وبأية آلة أهم كل منها باقيا بما يويه من مطلقه ؟  
وأى برلمان أو أى منات - مجلس شيوخ عقدت للتشاور في إبداع هذه المكونات  
الغاية التركيب البديعية التأليف ؟ وأتى لهذه الأجزاء أن تعلم وعلى في بيضة  
المصنوع ضرورة ظهورها في هيئة طيرياكل الخبوت فمن الواجب أن يكون له منقار  
وحوصلة لحاجته في حياته إليها ؟ ..

• • •

وبعد كتابة « الرد على الدهريين » بنحو ثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد « لفلسفة  
دارون » مؤلفه الشيخ محمد رضا آل العلامة التقي الأصمهانى ، وهو باحث فاضل  
من علماء الشيعة بكربلاء المعنى ، تحرى لنظر في مجموعة وافية من مراجع مذهب  
الشيعة العربية والأفريقية التى وصلت إلى اشرق الإسلامى بعد كتابة « الرد على

الدهريين ، ولم يفتح على أطلع عليه من هذه المراجع ، بل أرسل في طلب غيرها من المراجع المستحدثة ، ولكنه ألف كتابه ولم ينتظر وصولها إليه لولا « اباعث الدين » كما جاء في مقدمة الكتاب حيث يقول إن دارون ومائل رؤساء هذه الفلسفة ألفوا كتابا غير موجودة عندنا ، وكان الحرم تأخير تصنيف هذا الكتاب إلى زمن وصولها لولا اباعث الدين وظننا أنه يوجب علينا التسارعة ولا يبعد أن يكون قد معا صرى دليل قد فزع هؤلاء من إثباته أو كبرى حجة مذكور في كتبهم برهانا ، وأن أقترح عليهم أن يجابروا بما يجحدونه من أمثاله لنظير فيه ، ولهم علينا أن نستعمل الإنصاف لا المكابرة .

ولم يقصد المؤلف بالباعث الديني أن يقصر ردوده على مناقشة الآراء التي تخالف الديانة الإسلامية دون سائر البيانات ، ولكنه أراد أن يتقص أدلة الاتحاد التي تعرض الأديان بالله وبالعبادة الإلهية على إيجابها ، وقد قال في كلمته الخاصة بالمؤمنين : « يعلم أن كتابي هذا موضوع للدفاع عن الدين المطلق في قبال اللادين محض ، لا للانتصار لدين على دين . ولقد ترى أدفع ما استطعت عن أديان لا أنحبها ومذهب لا أقول به . لأن أحد هؤلاء لا يثلب دين إلا وقصده ثلب الأديان عامة ولا يرى على شريعة إلا يسرى ارتدوه إلى شرائع قاطبة .. » وأنصف المؤلف مذهب الشيعة فلم يحسبه من مذاهب الاتحاد والتعصيف لأن القول بالشيعة لا يقتضي إنكار الخالق وإنما يتسرب إليه الاتحاد من تفسيرات اهاديين لمقدماته على الوجه الذي يوفق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره ، فيقول المؤلف عن فلسفة الشيعة والارتقاء إنها « ليست مما يناه الدين ، إذ الذي يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات بأراضيها ومساواتها وما فيها من صفات المحسوسات من نباتاتها وحيواناتها ، والبشر على صيغها واختلاف لغاتها ، صنع إله واحد قادر حكيم قد وسع كل شيء عندا وأنتقه صمعا خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار ، وهذا أمر متفق عليه في جميع الأديان ، وأما كيفية الخلق وأن هذه الأنواع كلها خلقت حلقا مستقلا ، ووجدت من كتف العدم اسده ، وأما لم تتغير عما وجدت عليه في أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة ، وسواء كانت آباء الجمل جهلا أو كانت صفادع تنق في الماء .

والجد الأعلى للقليل قبل أو : مسبوها ، بطير في الهواء ، فان أدلة الصنع عليها في  
الحايز ظاهرة ، وهي على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة ، ففرصة الملاحظة بهذه  
الآراء وجعلها أساسا للحجج من أغرب الأشياء :

ثم يقول المؤلف في هذه الآراء : « ليس فيها إلا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية  
تصنيعها ، ومتى كان أهل الدين يذكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع  
الأشياء في وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر ؟ وهم يرون الله تعالى يلطف  
حكيمه وبديع صنعته بخلق النمر من الشجر ، والشجر من النوة ، ولا يجعل العيب  
خلوا إلا بعد ما يجمعه حامضا ولا يجمعه حامضا إلا بعد ما يجمعه مرء »

ويستطرد المؤلف إلى تلخيص آراء التشويش الذين آمنوا بالخلق ، ثم يرجع إلى  
أقوال القدماء من المجمع الذين انتسبوا إلى لقردة كما انتسبوا إلى غيرها من الحيوان ،  
ويرجع بعد ذلك إلى أقوال أئمة المسلمين الذين عرفوا أشبه بين الإنسان والقرد ،  
ولم يذهبوا مذهب دارون في تعويله على وجوه الشبه وإعراضه عن وجوه الخلاف  
فيقول : « إن أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أعرب وأقرب ، ويستشهد  
بكتاب التوحيد الذي أملاه لأمم جبر اصداق على فضل بن عمر الخنفي ، ومنه  
على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالإنسان في كثير من أعضائه ، أعين  
الرأس وانوحيه وتنكبين ، وكذلك أحشائه أيضا شبيهة بأحشاء الأسد ، وحسن  
مع ذلك بالذهن والعملة التي بها يفهم من سائس ما يرمى إليه ، ويحكى كثيرا مما  
يرى الإنسان يفعله ، حتى أنه يقرب من خلق لسان وشهائد ، أن يكون عبرة  
بالإنسان نفسه فيعلم أنه من هيئة البهائم وسحقه ، إذ كان يقرب من خلقها هذا  
القرب ، وإنه لولا قصيبه نفس بها في الذهن والفعل ولأنطق كان كمنهض البهائم .  
على أن في جسم القرد فصولا أخرى تفرق بينه وبين الإنسان كالخطم والذنب المسدل  
والشعر الجمل للحشم كله ، وهذا لم يكن ما دعا بقرد أن يخلق بالإنسان لو أعطى  
مثل ذهن الإنسان وعقله ونطقه »

ويستقل المؤلف إلى كلام الدميري . إذ يقول عن القرد إنه : أشبه الإنسان في  
عاب حالاته ، فإنه مضطرب ويهرب ويعني ويحكى ويتناول أشياء بيده وله أصابع  
معصية إلى أنامل وظاهر ، ويقبل لتلقيم والتعليم ورأسه بالناس ويمشي على رجليه

حيث يسيرا ، ولشعر عييه الأسفل أهداب ، وليس دنت شيء من الحيوان سواء  
فهو كالإنسان ، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الإناث ، وهم حصتان من  
مفاجر الإنسان ، فإذا رآه الشبق استمنى فيه . وتحمل الأنثى أولادها كما تحمل  
المرأة . وفيه من قبول التأديب والتعليم ما لا يحصى .

ويذكر المؤلف أن أحيوان الصفا ، سعوا بوصف هذه المشابهة ما لم يبلغه دارون ،  
حيث قالوا إن القرد أقرب شكل جسمه من حسد الإنسان صارت نفسه تحاكي  
نفس الإنسان . ثم يعقب على هذه التشبيهات جميعها ، فيقول إن الإنسان  
كما يشابه القرد في أشياء يشابه غيره من الحيوان في غيرها ، بل لعل في الحيوانات  
التي من شبه الإنسان أقساما لا توجد في العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد  
لمشابهة . وهذا الأساذ لشهر وكوفيته ، يقول إن إدراك لقرد ليس أرق من  
إدراك الكلب الأقل . وإذا سلمنا أن من لوازم المشابهة التحول ، فكيف يمكن  
تحول الإنسان عن حيوان نشأ عنه القرد ؟ . فعمل الإنسان تحول قردا . . وهذا ما  
نرى عليه الذكر الحكيم .

وبعد مناقشة المؤلف قربة شبه الظاهر بين الإنسان والقرد ، مضى يناقش  
القرائن الأخرى التي يستند إليها النشويون للقول بتحول الأنواع وتحول النوع  
الإنساني من بينها ، عن أصله المشترك بين المقاريات العليا ، فيج في مناقشته  
عن هذا المسجع الذي يستند الدليل من أصول الخلق المنطوق تارة ومن تحولات لواقع  
تارة أخرى ، وأما دته مطالعته للمتفرقة مراجع المذهب فلم يخطئ مواضع الحجة  
البراهنية أحيانا ، مع اعتماده اعجاب على مسجع النقائض الحديثة . ومن قبيل ذلك أنه  
عمد في دليل من أقوى أدلة النشويين وهو نقاء الأعضاء الأثرية - كالشهوة  
في ذكور الإنسان ، فتساءل : « لا أدري لماذا يرى أثر عار الخوة طاهر في  
الإنسان ، ولم يبق فيها هو أدول منه في سلم الارتقاء كذوات الحفر » ولم يمس أن  
يستدرك على هذا الاعتراض بما أسنده إلى ما قال لشيوخ الرئيس في الشفاء : أن  
القبيل يذكر له ثدي كما للإنسان ، وذكر ذوات الحفر لا ثدي لها إلا ما يشبه  
أمهاتها ويتزع إليها كما يهرس مرورا في الخيل .

وجمعه رأى المؤلف أن يسمى بالأعضاء الأثرية بدخل في باب

« للشودات ، التي تعرض لتركيب بعض الأحياء ، وهي أجنة في بطون أمهاتها ، أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيد ، أو ما يولد وله حواف واحد ورأسان وأربع أقدام . أو ما يولد وقلبه في غير موضعه ، ثم قد تستثلا . » فهل يمكن تعليل هذه الشود المشووعة بحيوانات كانت كذلك في تصور الجيولوجية فانتقلت إلى هؤلاء التعساء بناموس « الأنافيسم » ؟ . فمن ثم يمكن ذلك هل تكن الشود التي فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل .

ومبج المؤلف في نقد الانتخاب الحسى - وهو سبب هام من أسباب التطور - كمنحه فيما تقدم ، فهو يبدأ بالانتخاب الحسى في نبات وسأل كيف يقع الانتخاب الحسى بين النباتات التي لا تتوقف تنقيحها على الحشرات والطيور ؟ وكيف تغير الحشرات والطيور ما هو جميل وما هو أحمس ؟ . ثم يقول : « إن العجاوات قبله الإدراك لما في المصوغات الجميلة من الجمال حتى أن بعضهم جعل ذلك أعظم فارق بين الإنسان وبينها ، وكان الأستاذ هكسلى ممن يذهب هذا المذهب . »

قال : « ثم هب أن هذه الحيوانات المضحقة حلزة الهوى والقزام ، وهائلة بالجمال كعروة بن خرام ولكنها لا تريد معارلتها بل تطلب رزقها المقسوم لها ، وعند أى نبات وجدت له لقمته حسنا كان أو قبيحا فلا أدري بم يطل هذا الحس والانكظام في الفواكه والأثمار وما فيها من الطعم المحبوب والكهة الطيبة ونحوها مما لا يوجد إلا بعد التلقيح . »

ثم انتهى المؤلف على أساس مذهب التحول ، لأنه قائم على القرائن تعدد الأنواع بعد انفرادها أو قتلها ، وليس هذا الاقراض باللازم ضرورة من قياس العقل ولا من نتائج الواقع . « ومن الطريف في هذا الرأي أنه كما يمكن أن يطل به القول باتحاد أصول الأنواع أو قتلها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا ، فيقال إن أصول الأحياء كانت في بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يكون من التباين وعدم التشابه ، فلم يزل كل حي يختلف نسلا يشبه بناموس الوراثة وبيانه بناموس المباشرة لكن لما يقرب إلى فرد آخر ، فلم ترل تلك البيانات مع الأجداد تزيد التشابهات مع صفات الأفراد ، وتتنازع البقاء بلاشى الضعيف ، والطبيعة تنتخب القوي حتى صارت التباينات التي قلنا أنها مع غير المشابهات ثابتة . فتأملت مه

الأنواع الموجودة .. وله شواهد على مذهب هؤلاء ، مالمية مثلا تعد الآن من  
جس لدبابات ولا تجمع معها في الأصل بل أصنافها من ذوات الأرجل ، وقل منه  
في الحيوانات المتحطة التي يذكرها نحر وغيره ، فانها الآن تؤلف جس المنحطات  
وهي بعيدة في الأصل منها ..

قال : وهذا الاحتمال .. وان لم أجد أحداً قال به في أصول الأنواع ،  
ولكنه أحد لقولين المشهورين في أصل اللغات .. وعند العصاة مدهان شهيران :  
الأول أن لغات البشر متشابهة ، وهي كلها من أصل واحد .. وهذا الأصل قد تفرع  
وتنوع فتولدت منه لغات البشر المختلفة ، لما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة  
ولكنها بعدت عن الأصل كثيرا وتغيرت بالزيادة والنقصان والحث والحذف حتى  
بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع ، وتعد رد بعضها إلى بعض لفقد  
الحقائق الكثيرة من بينها ، والمذهب الثاني أنه كانت لغات البشر أصول مختلفة  
بحسب عدد طوائفها ، وأنه مع الزمان اقترب هذه اللغات بعضها من بعض  
فتمازجت وتشابهت بتمازج أهلها وتشابههم الخ . وعند الكاتب أن المذهب الثاني  
أقرب إلى الصحة وأقدر على حل المشكلات من الأول .

وتابع المؤلف بحثه في الشو ، فاستطرد منه إلى البحث في الارتقاء وسأل :  
أي معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الإنسان عن ذوات الأربع ،  
مع اشتراك الكل في حصول التغير ؟

وانتهى المؤلف إلى أن المذهب كله ناقص الاستناد ، لا يوجد فيه حجة قطعية غير  
قرائل الترجيح والتغيب ، ولا غنى له عن المريد من البحث والتتقيب ، كما قال بعد  
أكثر من خمسين صفحة على هذا المنهج مستندا إلى قول فيرسو العالم الألماني : أنه  
في بعض طوائف الناس صفات يشاركونهم الفرد فيها ، كما في بروز الفك وعظم  
الأنف مما يجعل العلاقة قريبة بين تلك الطوائف والفرد حتى يحتمل ارتفاعها من  
الفرد ، ولكن بين الاحتمال والقطع بوج شامعا لأن الصفات المشار إليها لا تقوم بوج  
الفرد بل المقوم له خواص أخرى ، وكل قدة من جلده كاهية للتمييز بوجه من غيره من  
الأنوع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين يرتاب في ذلك ، والفرق بين الإنسان  
والفرد واضح جدا حتى أن كل قطعة من الواحد كافية يستعمل بها على النوع

المقطوعة منه .. فالأدلة على الشبه الفعلي قاصرة جداً لا يبني عليها حكم ، ولا بد من أن يريد ما البحث والتفتيش للوقوف على أدلة أخرى قوية ..

• • •

ويتبين من مراجعة « المكتبة الشوثية » في الشرق العربي ان الاهتمام بالمذهب كان على أشده بين أنواع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجبية ، لأنها هي الكنائس التي تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه في موطن ظهوره ، وشاركهم في ذلك علماء الطيعة المسيحيون ممن أنكروا المذهب واستندوا في انكاره إلى الأدلة العسبة ، ومطالبو الشوثيين يريد من الأدلة القاطعة لإثبات نظرياتهم لأنها نظريات تنقص بعض المقررات الدينية ، ولا يكفي في مثل هذه الحالة أن تستند النظرية إلى الترجيح والتعليب أو إلى الظن والتقدير ، وقد جرى إلى هذا النسب كثرة الدراسات التي تعرضت لمذهب الشبه من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس الكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة العربية ، وبخاصة في البلاد التي كان اللاهوتيون يشرفون على معاهد التعليم فيها ويأخذون بزمام ثقافتها وآدابها .

ومن مختارهما من الدراسات انشوتية التي كتبت باللغة العربية ، ولا تستقصيها لكثرتها وحرج معطمها عن موضوعه ولم يحد بينها ما هو أوى من دراسات الأساتذة ابراهيم الحوراني ، والأب جرجس فرح صفيح المروني ، والأسقف خير الله اسطفان ، والدكتور حليم عطيه سورياً ، ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسعين سنة ، وأحدثهم كتابة عنه من تصدى لمناقشته بعد ظهور كتب الدكتور « شلي شميل » في موضوعه ، وهي مؤيدة للنشوتيين المكرين للأديان .

فالأستاذ ابراهيم حوراني - وهو عام يعزى مطلع على المباحث العلمية ألف في الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج الحكماء في نفي النشوب والارتقاء » ثم تبعها برسالة « الحق اليقين في الرد على بطل دارون » وطبعها بيروت ( سنة ١٨٨٦ ) رداً على مناقشة الدكتور « شلي شميل » لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن لصنف في المذهب وهو انتقاره إلى الدليل القاطع وتحويله

على الشواهد التي توحي بالرأى ، ولا تستحصل الشكوك أو تسكت المنعصر  
المطالب: بدليل لا يصعبه الاحتيا .

وقد أثر الأستاذ حوراني أن يؤخر رأيه حتى يسوق بين يديه آراء علماء الطبيعة  
المحالين لدارون في القول بتحول الإنسان عن غيره من الحيوان ، قال : ان العلماء  
لم يشتوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا به مع علمهم أنه بحث فيه عشرين  
سنة ، ومنهم العلامة وشمل مع أنه من أشد الناس ميلا إلى القول بالارتقاء بفعل  
الله . ومنهم العلامة ولاس قال ما خلاصته أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا  
يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأسا .. ومنهم الأستاذ فرغوق قال انه يتبين  
لك من الواقع أن بين الإنسان والقرود فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان  
سلالة فرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نفوه بذلك . ومنهم : ميرت ، قال  
بعد أن نظرفى حقائق كثير من الأحياء أن مذهب دارون لا يمكن تأييده وانه رأى  
من آراء الصيبن .. ومنهم العلامة فون بسكوف ، قال بعد أن درس هو ومرخو  
تشريح المقابلة بين الإنسان والقرود أن الفروق بين البشر والقرود أصلى وبعيد جدا ..  
ومنهم العلامة أعاسيز ، قال في رسالة في أصل الإنسان نليت في ندوة العلم  
الفكرية ما خلاصته ان مذهب داروين خطأ علمي بطل في الواقع ، وأسلوبه  
ليس من أساليب العلم بشئ ولا طائل نمته . ومنهم العلامة هكسلى وهو من  
للأدرية وصديق لداروين ، قال أنه بموجب ما ما من البيانات لم يتبرهن قط أن  
نوعا من الثنات أو الحيوان شأ بالانتخاب لطبيعى أو بالانتخاب الصناعى ، ومنهم  
العلامة تندر وهو كهكسى قال انه لا ريب في أن الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون  
أنه نتيجة مفدمات م يسم بها . ومن المحقق عدى أنه لا بد  
من تغيير مذهب داروين ..

ويقسم الأستاذ حوراني أصغر مذهب التشو إلى ثلاث فرق : معطلة ولا أدرية  
والهية . أما المعطلة فهي التي نفت الخالق سبحانه وقالت بقدوم المادة . وأما  
اللاأدرية فهي التي لم تتعرض لنفى الخالق ولا لإثباته . وأما الهية فهي التي اعترفت  
بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة وانقسمت هذه العرقة إلى اثنتين ،



طلب إحداهما الإنسان ابن الفرد أو صوره ومها داروين ، وقالت الأخرى بأن الله خلق الإنسان من اليبس إسباتا ومب العلامة ولأمن ، وعماء هذه الفرقة أصحاب الشوه الإلهي الذي قالت بإمكانه وصرحت بعدم اليهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعه مقبعا .

ثم أورد الأستاذ حوراني احصاء بعض عماء الحفريات عن الأنواع التي وجدت في باطن الأرض ، فقال ان ثمانية وعشرين في المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة في المائة أنواع مهجرة ، وخمسة وستين في المائة لا سلف لها . وأما الأنواع التي نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها في شيء من بقايا الحفريات .

ويرد الأستاذ حوراني على استدلال النشويين بتشابه الأجنة بين الإنسان وبعض الحيتان ، فيقول ان علة هذا التشابه بساطة التكوين وتصر النظر . سليل أن التبرير يعظم على توالي اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الإنسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة البقرة إلا بوزة .

ويحيل النشويين إلى بحث التيراثولوجيا أي المشوهات - لتفسير الأعضاء الأثرية التي تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها : الأعنث : أي من له ست أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهليل وجوده وهم الأختان المحاربتان المشهورتان ، كانتا متصقتين بالثنين والأفخاذ والأحشاء ولدتا سنة ١٧٠٩ وحاشا اثنتين وحشرين سنة وكانتا مختلفتي السجاء والأخلاق .

وقال عن الانتحاب الطبيعي إنه لا يمكن « أن يكون أس لارتقاء دارويني لأن الطبيعة إما تؤثر في الموحود ، وليس لها أن توجد للمعدوم ، فيمكن أن تعني العيوب ولكن لا تستطيع أن توجد لنصر » ويقتضي مذهب داروين أن لا تجمع الأنواع الدنيا ولعب بل تتعاقب ونسبى الأول نشية أسدا . ولكن ذلك لا يحتاج ثبت في المتقرصات والأحياء .

وأضعف م في ردود الأستاذ حوراني بوله عن عدم لاسان ، إذ يقتضي مذهب داروين أن يكون لاسان قدما جدا ، ولكنه تير لأشهر العلماء وكاسرهم من النشويين وغيرهم أنه أحدث ، لأحياء وأنه كان مد بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان في تالي العصر الجلدي وهو معروف بالأكثر أحذية .

وحصل ذلك في حصة له في الأساس بل ومن الدريج .. وقد الدكتور هويد .  
نظرت أربع فرق مستتقة من الحيوانيين في رسم بشوة الانسان فتعققت على أنه بشاً  
منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة .

• • •

وفي زياد استخدام المناقشة بين مكبرى المذهب ومؤيديه ، أصدر لأب جرحس  
فرح صغير لماروني مدرّس الفلسفة بالمدرسة اللبنانية في قرية شهورن ( ١٨٩٠ ) كتاباً  
نرج فيه منهج الحوار بين خصمى . سمى أحدهم بالإنسان القردي وسمى الآخر  
بالإنسان الآدمى . وأدار الحجاج بينهما على هذا المثال ، مع اختصار بعض  
التفصيلات :

الآدمى - أين تجدون أشكال الانسان من بد قردي إلى رجل إنسان ؟ أهل  
عبر على ذلك أحد عمائكم ، قال لم يثروا على شيء من ذلك . فالإنسان القردي  
لا يكون له وجود .

القردي - إن المباحث المالتوتولوجية « المحورية » وحق يقال لم تأت من  
يعرب عن تسلسل بين الإنسان والقردي أو أحد أنواع الحيوانات . على أن أسانددت  
قد أجمعوا على أنه من المحتمل أن من الحيوانات التي على شكل حصاة البحر ما  
يتحول إلى حيوان فوائمه على شكل قوائم لطير . وإن منها ما قد يتحول إلى الماعز  
ومنها إلى الخرفان .. الخ

الآدمى - قال كان ذلك من طووع المحتمل لا من أمارات اليقين ، فأين  
العلم الحقيقي الذي نعوذون عليه ؟

القردي - نعم إن لم نجد إلى الآن أثراً إلى الإنسان القردي ، غير أن  
العلم لم يه فضاءه

الآدمى - ولكن ماد يكون هذا العلم الذي يقضي بخلاف الواقع . فالتأري  
الأنواع لا تعبر عن ذاتها وإن كثرت فيها الأسال ، فإذا قلت لا فارق بين النوع  
ونسب أسكتك لعلائم الفريولوجية ونحن نحصره في أمر وهو النتائج

نقردي ومن يمكنه أن يرسم نجوم البوع والعلماء لا يكذبون بتفقون على  
شيء منه ٩٠٠

الآدمي - أو يكون الجهل في أصل شيء أو في علته حجة في إنكار وجوده ،  
أصغره ما للعلام الحوية والأرضية من الأسباب وانعلاق وحس مع ذلك لا سكر  
وجودها .. إن تعلم أن الموبود من قرب الفرس والحمار لا يكون إلا عاقرا ، فتقول  
لا بد من نرف نوعي في مولده ، أهجها في رسم حدوده بمكب من بكر وجوده  
نقردي .. إلا أني أعرف من أصحابكم من يقول بإمكانه مذهب التحول ..

لآدمي - لا تجهل أن البعض من أصحاب الأيمان يحبون أن يوقفوا بين  
التحول والأيمان ، فيقولون إن الله سبحانه قد حل آدم من تراب قد عركه كثير  
من المولدين من الحمار باز إلى آخر حيوان ذي أربع قوائم ، فأحد الله هذه الحيوان  
الأخير من السلسلة المتحولة وهو القرد ودمج فيه النفس البشرية ، وعليه فيكون آدم  
نتاج عمل تحول وغنائم معا . وأين ذلك لغير معاوضة كيف يعبد هؤلاء في  
الصلال ومن العجيب كيف لا يفقهون أن هذا المذهب إنما تنعبه لفلسفة نفسها  
كما سبق بيانه ..

نقردي أو هل تنعبه الفلسفة لو افترضنا تدحل الله عند انتقال كل من  
الأنواع كما تدحل عند خلق الإنسان ؟ ..

الآدمي إذا افترضنا تدخل الله سبحانه كان لا بد من تعويض نفس  
نفس أم هذا التعويض هبم إما بوجود القرد الأول الذي تكون أو في بداية  
الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق أما الأول فلأنه يفترض قتل الحي ثم إقامته  
أو ملاحقته ثم إقامة آخر بعده

نقردي قرأت في كتب بعض أصحاب مذهب التحول أن ليدز إنما يتبع  
من عمل صدقة يدور عليها الانتخاب الطبيعي ، ل قولك به ؟ ..

الآدمي قد سبقهم إلى مثل هذا القول غيرهم من الملحدين الذين يؤيدون  
المادة . ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يقولون عليه من فعل الصدقة في تمايز  
الكائنات .

إن الصدفة لا تقع ، لا في الأشياء التي يمكن لها أن تكون على خلاف ما هي  
قد يمكن للعاولة التي يصعب النجار أن تكون مربعة أو مدورة ، أما الأشياء التي  
هي من الضرورة ، ودائماً ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق الاتفاق ولكن من  
الأشياء ما لا يمكن له أن يكون على خلاف ما هو ، مثل الخواهر البسيطة وذوات  
الأشياء وحفاتها ومثل الأعمال التي تصدر عن فاعل لا يصدمه في فعله شيء  
كأخاذبة مع قطع لظفر عن كل ما يصادمها في فعلها ، وعيه فإن هذه الأشياء لا  
تقع عليها الصدفة . أتظن إن للصدفة أن تجس الكلب حماراً ولحمار كلب  
ويح شاهد أن الحركات والأفعال إنما هي تمايز لأشياء ولا تسبقها أو لا  
تري أن لسة لا تتحرك ولا تحرك قبل أن يعمل كل من آلتها في موضعه على هيئة  
من التمايز لا ينبغي أن يشوبه أدنى خلل ؟

• • •

ويصفي هذا الحوار إلى عمر « لسان القردى » عن الجواب فينبه صاحب  
لكتاب بمقابلة مطونة لمذاهب الماديين يستند فيها إلى حجج الفلسفة اللاهوتية ،  
ويقرر فيها أن العلوم الطبيعية وحدها لا تكفي لتحقيق النظر في أصل الوجود من  
حيث هو موجود ، وهذا سمي البحث عن أصل الوجود عما بعد الطبيعة لأنه يسعى  
أن يقرأ هذا العلم بعد الوقوف على علم الطبيعيات ، وإيراد به علم يبحث عن انوجود  
من حيث هو موجود ، أي عن ذات الأشياء بقطع النظر عن معيَّات وأحوالها  
الخاصة التي يحاز بها الشيء عما سواه ، أو علم يبحث به عن الأسباب الأخيرة  
للوجود والمعرفة ، فإن كليهما لا يتصلان ، لأن مبادئ المعرفة وانعلم العالية المطلقة  
إنما هي التي نمكننا من الوقوف على أسباب الوجود . وبذلك منه يكون علم العلوم »

• • •

ولا نعلم أن كتاب في هذا الموضوع بقلم باحث مسيحي من كتاب اللغة العربية  
ظهر قبل كتاب « صفوة علم اليقين في حقيقة مذهب دروين » مؤلفه الأسقف حير  
اله اسطغان باطر مدرسة عين ورقة الذي ألفه بعد الكتاب لسابق بأكثر من ثلاثين  
سنة ( ١٩٢٩ ) أعيد في حلالها طبع مؤلفات الدكتور شبي شميل في هذه المذهب ،

وشهد البحث بين الأوروبيين في نظريات الشسوء عامة على أثر الحوث المتضاربة في نظريات تنازع البقاء وإزادة لقوة وما إليها من « تفلسفات » التي أثارها الحرب العالمية الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحربين العالميتين . وقد أشار لأسقف إلى لأطور التي مرت بذهب دارون منذ إعلانه في سنة السنة ، فنقل كلامه عن انعام لألاي إدوارد فون هيرمان قال فيه إنه « في سنة ١٨٦٠ كانت مقاومة الأعداد من انعماء الشبوح بنظرية داروين شديدة ، وفي سنة التسعين أخذت هذه النظرية تنتشر في كل صقع تقريبا . وفي سنة الثلاثين كان نفوذ المذهب الدارويني عاما ومصدقا حتى كاد يلغ بسموه تحت الرأس ، وفي سنة التسعين بدأت بعض الشكوك تختل وبعض المقاومات تظهر ، وعلامة التصديع والأهدام تبيى واتصحت ، وفي العقد الأول من الحيل العشرين بدأت أيام المذهب أن تكون معسودة ، وكان بين مضاديه رد حصى حججه من أعلام انعماء انعم ، وغوستاف وولف ، ردى فريه Virse وفون والشين Wallstein وعيشمان Fluchmann وريك Rienk وغيرهم كثيرون » .

وبعد هذا التمهيد عرص الأسقف للبحث من الناحية اللاهوتية فقال : « نبحث العلمى عندما بأتى نتائج واقعية أكيدة تجتمع ساعتئذ كلمة العلم المسيحي وغير المسيحي عيبا على غير تصدد ولا ساف ، وهذا هو عين الصوب والرشد لأن الحق لا يغاير حق ، ولا يتسلسل لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكية كما أنهم لا يسلمون لأخصائهم الفلاسيل بالمذهب الدارويني ، يخص . وهذا بعض لوجب عليهم بالنظر إلى ما يافص حقائق لوى المقدس . غير أنهم متى رأوا من بعض الوحوه اتفق بين اللاهوت ونظرية الشسوء كانوا من هذا انقييل لى الجانب بقاء هيبس . من هؤلاء انعماء الالهوء لمتشدين لأب واسمان الحرمى لشهير بعلم صائغ الحشرات الميال إلى لاعتماد نظرية شسوء الأنواع المعتدلة ، انقائل بأن أنواعا كثيرة من السات والحيوان نشأت من أنواع طيعية أصيلة أبداعها رب لطبيعة الخلاق ، كالآرامب الألفة والبرية والحمار ونمرس والكب ولشعلب الح فلذلك يهد ترى أن مبدأ الحق والإبداع بث غير ممسوس التة ، فاداحل تصور شتقاق الأنواع الجديد بالتحدر والتسلسل محل التصور القدم لثبات الأنواع على عدم لتغير كانت حكمة

ابرى في الجديد أجدد منها بالقديم ، من وجه أنه عر بواله وجل جلاله رصع في  
الطبيعة الآلية قوى تؤهلها لتحدير ونشر صور جديدة لوجودات حية بدون افتقار إلى  
بوسط أو تدخل قدرة الله المتدعة لتكون وتواحيه والمعنية بحفظها ودارتها وحيا  
تتصادم نظرية ما مع التعيم المسيحي تصدما واصحا عبر قديم للشك . يجب وقتئذ  
رفض هاتيك النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا ، كل من قال بمبدأ نشوء  
ينشأ به الخلقة قطع بدون رجعة يجب أن يضرب بقوله ومدته عرض الحائط ، وكل  
نظرية تذكر خلقة العالم بستة أيام يراد بها ستة أدوار أو ست مدد يجب أن تطرح ،  
وكل قو بأدوار طويلة مرت وانقضت بين تكوين الأرض وخلق الإنسان هو قول  
مغفول هذا هو مغفول لأنه ليس في الكتاب الكريم ، بهيه أو يقصه أما  
بالنظر إلى أصل الإنسان ، فالكاثوليك مفيدون بنس سمر التكوين ، ويمكنهم  
التوسع بتفسير كلمة الكتاب من جهة الحمد فقد ارتأى بعضهم أن المقصود  
بقوله جبله من تراب الأرض أنه قضى ورسم الصورة وهيا الهيئة وليس كي يجعل  
لها جوى حرة والأبريق ، وأما من جهة النفس فالتعليم الكاثوليكي رخصة  
المصادقة الرصينة يلزمنا أن نقف عند الاعتقاد الراهن الثابت بأن أنفسنا روحية محنة  
وبها تفرق وتمتاز جوهريا عن نفس الحيوان .

وتلى هذه المقدمة براهين الأسقف انشئ بنى عليها رفض تحول الإنسان عن غيره  
من الحيوان ، وهي تلخص في المطالبة بالخلقة المفقودة ، وهي « لم ير لها أثر أو عين  
بين الأحياء ولا بين الأموات ، لا في الأحافير ولا في المتحجرات . »

ثم سأل الأسقف : « إذا ثبت مذهب المشو هل يناقض الدين ؟ » فكان  
جوابه : « لا يجب مع علماء النزيهين لمخردين من الأغراض والأهواء نالتي ، وربه  
لا يصادد مقاصد الخالق وعيائنه ، واستشهد ببحث الدكتور مكوشى بقول فيه  
« إن المشو بجميع مذهب لا ينشئ مقاصد وغايات الباري عز وجل ، فالأستاذ  
هكسلى الشولى الكبير ولدى المعروف بين الناس البهاء سئم يكون المشو لا يلزم  
منه بنى مقاصد الله ، وإن ترتب أو توقف مخلوق على آخر أو عملها مع لا عدم  
مقصد جيد أو اكتم عاية حسنة كالحياة لنبات وطيب العيش للإنسان والحيوان هو

دليل واضح عند كبار العلماء على مقصد الله فالذي يصنع آلة تعمل هي آلة مثبها ، فهو أحق وأقرب وأحكم من الذي يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود بها ولا تتعداه .

♦ ♦ ♦

وفي سنة ( ١٩٣٧ ) ألف الدكتور حليم عطية سوريال الطبيب الأول لسجن أسبوط كتاب : تصدع مذهب دارون والآثبات المعنى لعقيدة الخلق ، فيه إلى خط يسبق إلى بعض الأدهان ، وهو اعتقادهم أن انكار مذهب لشوء مقصور على رجاء الدين ، قلب من كبار العلماء الطبيعيين من يرفضه كالاستاد فيانون Vialleton عميد كلية الطب بجامعة موسكو وأستاذ عيم الأجنه فيه ، والأستاذ كترماج مدير متحف التاريخ الطبيعي بباريس وهو القائل : إنما لا نعم كيف تكومت الأنواع الحية . إنما نعم فقط أنها غير قديمة للنحول وإنما على يقين بأن دارون ولا مارك لم يكتشف التاموس الحقيقي لطريقة تكويها .

ثم سرد الدكتور سوريال أسماء بعض الأساطين من علماء الطبيعة المعارضين لمذهب النحول ، وحلاصة رأيهم في لاختلاف بين الأنواع : أن جميع تلك العوامل لا يمكنها أن تعبر نوعاً من الأنواع احيه إلى نوع آخر وكل التعمرات التي يمكنها أن تحدثها سطحية لا تمس التركيب الجوهرى للحيوان أو النبات وبعضها باثولوجية - سرعية تقود إلى انقراض نوع ، ولقد قال العالم الإيطالى رور أن الاحتار الاصطناعى الذى حربه بنو الإنسان في خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية دارون . . .

ويقرر الدكتور أن حلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء ، وليس بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب ، فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذات الخلايا متعددة ، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصلة ، ولا بين الحيوانات اللاقضية والفقرية ، ولا بين الأسماك والحيوانات لبرمائية ، ولا بين الأحيرة والزحافات والصور ، ولا بين الزحافات والحيوانات الثديية . وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في لعصور الخيولوجية .

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من امثال هذه الملاحظات العسية : « إن هاتك مسألة منطقية بسيطة وهي معرفة كيف استطاع المخلوق الذي يعتبره التحوليون الحلقة المفقودة بين الفرد والإنسان أن يعيش بين الحيوانات البصارية التي تحيط به .. فإن أصحاب نظرية النشوء يقولون أن هذا المخلوق كان أضعف عقلا من الإنسان الحالي فكيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله لأسد ولعيل والدب وغير غيرها من الحيوانات المفترسة ؟ » .

ويعتبر نقاد مذهب درون أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع - كما شرحها الدكتور سوربال - هي مشكلة انشاكل في تمحيص هذا المذهب في اليوم ، وأنها لا تزال على قوتها واقعا بعد نفضه مائة سنة على ظهور كتاب أصل الأنواع واستئناف التعيق عليه بين حصوم المذهب وأنصاره الذين استجمعوا عابدة ما استطاعوا حل هذه المشكلة بعد لاحتفال بذكرى مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب

• • •

ونحن نكتفي بالردود المقدمة لأنها تمثل ماضي التفكير عند رجال الدين في مناقشة مذهب النشوء ، وهي :

١ - منحي الحزم بالرفض لطلال المذهب في حمته وتفصيله لأنه مناقض للدين غير مستند إلى أدلة قاطعة .

٢ - منحي الرفض لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة الملمة والبريد بأنه إذا ثبت لا يقضي بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية ، في الخلق ..

٣ - منحي القول بأن الأدلة العسية التي يوردها العلماء لفسه والتشكيك فيه أرجع عن الأدلة العلمية التي يوردها عن تأييده

• • •

أما أنصار مذهب النشوء في الشرق العربي فقد كان أشهرهم وأنصحبهم دينا الدكتور شلى شميل ، وقد كاد أن يسبق درون وأنصحابه إلى الأحاد بالنظريات



الشوثية على علاتها ، وقد سبق الماديين الغربيين إلى نفي كل صفة روحية ، أو علة في الالهام ، إذ قال في مقدمته ترجمته بشرح بحر على مذهب دارون « إن الإنسان على رأى هذا المذهب طبعى هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل قريب فيها اليوم ، ولو أُصر على انكارها من لا يزل يفعل التعاليم القديمة راسخ في ذهنه رسوخ النقش في الحجر . فالإنسان يتصل اتصالاً شديداً بعام الحسن والشهادة ، وليس في تركيبه شيء من المود والقوى يدع على انحصاره بعالم الروح وانقياد ، فإن جميع لعناصر المزلف بها موحدة في الطبيعة وجميع القوى التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة . فهو كالحَيوان غريزويوجب ، وكالحَيوان كحيوانيا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكيفية لا بكمية والصورة لا بالماهية والعرض لا الجوهر . فالإنسان يحس ، والحَيوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحَيوان يدرك ، وبما ليس تصدية واحدة فيها . غير أن الإنسان يدرك أكثر من الحَيوان لانه أكمل تركيباً من الحَيوان »

ركانت ردود الدكتور شبلى شميل على مدعته تكرر لردود دارون ويحبر وغيرهما من الفاعلين بتحول الأنواع ، وفحواها

١ - إن التباينات بين الأنواع لا توجد على تباينات بين أفراد النوع الواحد إلا بمرئاة ، وهذه التباينات لا يحكم عليها بالفترة المعلومة من تاريخ الإنسان لأنها ثبت بعد تقضاء مئات الملايين من السنين .

٢ - وقد أنصاف الأنواع من شأنها أن تعيش وتقل موارثها إلى زمن طويل ، لأن للتوريث مرتبط تمام الجهاز المميز بسوء وهو لا يتم في أنصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه « اكتشاف الطير العجب الأركوتركوس الذى وصل بين طائفتين من الحَيوان منفصل بعضهما عن بعض اتصالاً تاماً وهما الطيور والخشرات » .

٣ - إن النعماء يحفظون في وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون « أن لتباين الألبانجيري وسنى يذكر ١٨٢ بيتاً ، حليريا عندها أربعة أنواع مع أنها تباينات ، وقد

قال هوكر في هذا المعنى ما نصه : إن لنبانيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ نوع من السمات ، فالنوع إذن غير محدود .

٤ - إن التحولات لا يسفى أن يبحث عنها في الأنواع الخاصرة . لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة به في سلسلة هي التي كان يمكن أن يحى منها التحول في أوانه . ولكن الأنواع الخاصرة ساعدت عن أصولها فابتعدت الأشبه المتحولة فيما بينها .

ولا نسى - عند تقدير عوامل العناد بين الطرفين - أن الدكتور شبل شميل إى يوجه هذه الخصومة اللود ملطان رجال الدين ، فاساق من هذه الخصومة إلى خصومة الأديان ، ورأى كما قال في مقدمة الترجمة أن « الملل والديانات أصها واحد ، وقيمها في الدين إنما هو لعالمين حب الرئاسة في الرؤساء ، ورتباج المرء وسراى حب المقاء ، وكلامها لما في الإنسان من محبة الذات . فسطا دهاة الناس على سادجى العقول مهم ، فساد البعض وسيد على لبعض الآخر ، وتم بذلك فرض التعريتين » .

وحاطب رؤساء الدين قبل ختام المقدمة قائلا : « سوف يتولى ما بقى ، وربما كان حظكم من دين في الشرق أطول حدا لولا أن اقرب ناسط فوقه يديه . ولا نعلو المنس في التاريخ من سقوط بعض الأمم ألفت إليكم مبادئ أحكامها وسمتكم زمام أمورهم ، فلهذا وإن حصل دين - فلا أنكم من تنفوا أمايكم لتوفر معدات التقدم في العوم والصنائع وانتشار دين بواسطة الطباعة » .

• • •

ومعد . فهذه شارات من التعليقات الدينية والعلمية التي قول بها مذهب التطور في العرب وفي بلاد الشرق المعرى . فحسب أننا أتت فيها على كل رأى من آراء الباحثين الدينيين والعلميين في هذا المذهب ، وأن الكتب التي اخترناها للاقتباس منها تمثل جواب التفكير جميع في هذا الموضوع .

وقد مضى أكثر من سبعين سنة على ظهور أقدم الكتب التي ذكرناها في هذه المصحة . ومضى نحو ثلاثين سنة على أحدثها . فإذا أردنا أن نعود إليها بحكم

عليها حكم الرمن المحصر للأراء ، فادى براه اليوم أن الديين قد وقعوا موقف المتظر منهم في معارضة انشويين ناديين ، فليس من متظر أن يقابل انكار الدين بغير لانكار من أهل الدين . وقد أصاب العلامة الشيخ محمد رضا حين قال أنه يدفع الشهاد عن العقيدة الإلهية في كل ملة ، ولا يقصر دفاعه على عقيدة الإسلام

- - -

ولكن الكتب الدين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا -  
 ديب وعلب - في انكارهم باسم الدين أمور لا تزال قيد البحث بين الإثبات والنفي ، ويجوز أن تسفر بحوث العدد عن إثبات ما يقطع الشك فيها . كما يجوز أن ينفيها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم . وقد كان بعضهم عذره بقلة المعلومات لصحيحة التي وصلت إليهم عن مذهب درون ومدع لتطور على عموم ، وكان بعضهم عذر مثل هذا العذر قد يسوع اندفاعهم إلى ذره الخطر عن العقائد الإلهية يوم تحل ثائرة التقيد ، فهجموا على المذهب على غير علم به كعادتهم في الهجوم على كل جديد مستغرب ، ونحوه للثرثرة بأحاديث الاتحاد والبرق فكان تجعلهم هذا دعيا إلى مقابلتهم بتعجل مثله من الدينين

يد أنه - ولا ريب تعجل وخيم لعاقبة ، قد ظهرت عواقب الوحيدة مرة بعد مرة منذ ابتداء العلم الحديث في شركشوفه بتوازية ، ووجب الانعاط بعواقب التصدي للمباحث العلمية وهي في معرض التحقيق بين الإثبات والنفي أو التعلب والاستصحاب . وقد علم رجال الدين في العرب ماذا كان من أثر تحريمهم للقول بدوران الأرض حول الشمس ، ولجأهم تعميم انشأن أن الشمس تدور حول الأرض كأن وجود الخالق جل وعلا مرتبط بدور هذه أو تلك ، وكل في قلت يسمحون ..

قد كان في ذلك التعجل من رجال الدين عظة لهم تنبههم أن يعيدوا مثل هذه العلة في التصدي للمذهب العلمية اسي لم يقطع الشك في ثبوتها أو بطلانها ، وقد يقطع الشك عدا ما ثبت على مكرها أنهم كانوا محضين في فهم الدين والعلم

على السواء .. فان زلزال المادية الذي اضطرب له العرب اضطرابه العنيف لم يكن  
به حجة على العقائد الالهية أقوى من هذه الحجة على الدين ، كما تصوره المتعجلون  
من « المؤمنين » على غير يقين .

\* \* \*

ويشبه هذا الخطأ المكر خطأ آخر لم ينفرد به لاديبون ، بل شاركهم فيه رمة  
من العلماء م يحسوا التغيير بين قصايا العلم وقضايا الحقوق « المادية » أو الخنائية في  
المحاكم ودواوين التشريع . فصاحب الدعوى في المحكمة أو اللبوان مطالب بثبت  
دعواه لأنها مصلحة الخاصة ، وبها - إذا لم تثبت - اضرار بمصالح  
الآخرين ولكن الدعوى لعلمه ليست كذلك ، ولا يصحح أن يناط أمر ثابت  
بمن يسعى وحده ، وهي مصلحة الناس أجمعين ، ومن يسكرها بغير حق يصير  
بالناس أجمعين .

وقد أمرط الفاد جدا في انشئت عمالة الأنواع الوسطى ، ولم يصطنعوا الأدلة  
يدركوا ما في هذه الحجة من الضعف والعتو ويعلموا ان الشئ بها إلى هذه الحد  
إحراج المحصن من قبيل إحراج الخصوم المتسرعين على دعوى المحاكم والدواوين

فكيف يخطر على بال الدافع المحصن أن الأنواع الوسطى تبقى ه ذرية ، مع العلم  
بأن الوراثة لا تم قبل متكامل حصائص نوع ؟ وكيف يموتهم أن يلمحوا  
هذه الحقيقة ويرتبوا عليها ما ينبغي أن يترتب عليها من لثرت والانتظار ، وهم يرون  
اليوم أمثلة بارزة من توقف لسلسل بين الخيل والحمير أو بين الدواب والكلاب ؟  
وإذا كان الصائل بالمشوه يعجز عن إقامة الدليل على تسلسل النوع المتوسط ، فكيف  
يحال هذا العجز إليه ولا يحال إلى الواقع الذي لا حجة به ؟ إن كثيرا من الأحياء  
الباقية إلى اليوم لم يبق منها أثر يبد على وجودها في عصور الخفايا المظلمة بين  
طبقات لأرض ، فإذا حار هذا في أمر الأنواع التي يجب ولا شك في نجاتها إلى  
اليوم فكيف يستكنه على انصاف الأنواع التي لم تستكمل حصائص لسلسل والتوريث ؟  
فليس من الرى لسلم دينا ولا علما أن يرتبط رفض المشوه بعجز  
استثنائي عن انشاء أنواع وسطى من الأحيوان غير قابلة لطبيعتها لسقاء والتوريث

وقد يحدث عدا أن يوجد الدليل الممكن عن النوع المتوسط ، أو يوجد الوسيلة  
لممكنة لتفقيح بين الأنواع المتقاربة ، فتعود إلينا قصة دوران الأرض ، ودوران  
الشمس يخطر على الدين والعلم لا داعية له غير التعجل واعتق في الخصومة المعكوبة،  
وإنه نعمت مع يحور في خصومات المال وبكنه محرم أشد الحرمان في حصومات  
الأفكار والآراء ..

• • •

وفي كتاب تدور موضوعاته على حكم القرآن الكريم في شأن الإنسان يعيب هن  
أن سأل هل يعيب الدين يحرمون باسم الإسلام مذهب لمشوثيين المؤمنين  
بالحلق ؟ .

ويسر يتخللنا كثير من الشك ولا قليل في خلل كتاب الإسلام مما يوجد القول  
بمحرم عند المذهب فقد ثبت عدا أن المذهب صحيح كنه أو باطل كله ، أو  
ثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الإسلام لا يصد عن سبل  
العلم في أنه وجهة من هذه توجهات ، كي مسنبه في موضعه من الفصل الأخير

## الدين ومذهب دارون

نعود فنقرر في هذا الفصل ما احتمنا به الفصل السابق ، فهو ان مذهب التطور أيا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه المحدثون لإبطال انديين أو انكار الخالق أو القول بحو الكون من دلائل القصد والتدبير .

وقد نسب القوم بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجسدي إلى عالمين كبيرين من علماء القرن التاسع عشر . هما شارلز دارون والمريد رسل ولاس ، ولم يكن أحدهما منكرا لوجود الله .

فأومأ - شارلز دارون - كان يقول إنه يستريح إلى الإيمان بوجود الإله في هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شعوره قد لا يزعم أحدا أن يشعر به مثله ولا يبلغ من شأنه أن يكون حجة عمية تقنع المكبرين

كتب في سنة ( ١٨٩٧ ) إلى الأستاذ هرديس صاحب كتاب : صور من الشكوك يقول جونا على سؤاله « إني في أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا إذا كان معي المنحد إنكار وجود الله وأرى على العموم وبخاصة مع تقدم السن أنني أحرى أن أسمى ( لا أدريا ) وأن هذا الاسم أقرب إلى تصويب في وصف تفكيرى .. »

وقال في خطاب كتبه إلى طالب هولندي ( في الثالث من أبريل سنة ١٨٧٣ ) « يبدو لي أن استحالة القول بأن هذا الكون المعجب العظيم ، وما انطوى عليه من شعورنا الواعي ، إنما كان ريبا خصادفة هو أكثر سدا للقول بوجود الله . ولكنه سدا لا أستطيع أن أقرر قوة اقتدعه كما لا أستطيع أن أغشى عن المشكلة التي تنجم مما يتحصل هذا العالم من الآلام .. »

وكتب إليه طالب ألماني في سنة ١٨٧٩ يسأل عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة

التي يدعو إليها الأحد مذهب لتطور ، فكيف أحد دويده أن يحبه ويحب غيره من  
موجهون إليه هذه الأمثلة قائلا -

« ب. مستر دارون يعتذر لكثرة الرسائل التي ترد إليه ولا يتسرع له الرد عيب  
جمعها ، ويود أن يقول إن مذهب التطور وافق كل موافقة إيمان المؤمنين بالله  
غير أنها يجب أن تذكر أن الناس يحتسبون كثيرا في مريضهم لما يعونه بالآلة

ويقدم من خلاصة رأيه في سيرته التي كتبها لعله . أنه لا يفرق بين كتب العهد  
لقديم وكتب الديانة الهندية من حيث نسبتها إلى الوحي الإلهي . وأنه لم يغم لديه  
أدليل على حدوث هذا الوحي في التاريخ ، ولكنه إذا أراد أن يظن إلى المسألة  
للإله من حيث الانتعاش الطبيعي فإن أنواع الأحياء كانت حلقة أن تنضج عن  
تجديد وجودها و استمرار مسنها لو كانت شرور الحياة أكبر من حسنها ، وهي  
الحجة التي تستند إليها الملحدون في نكارهم للمقاصد الإلهية

وكان دارون على تروده في مسائل أعيب ، يشعر نقداً الدين ويحرص على  
رعايته شعور المسيحيين ولا يرضى من العلماء أن يفحموا مذهبهم على ضمائر الناس فيما  
اطمأنوا إليه من عقائدهم الروحية ، مما أراد كدول ماركس أن يبدى إليه كتبه عن  
رأس المال كتب إليه متعذرا ، وقال من رسالة مخفوفة الآن معهد ماركس والمجلد في  
موسكو « إنني أشكر مث رسالتك لودية . وقصص أن يكون هذا الجزء من  
الكتاب غير مهدي إلى مع شكري لهذه التحية ، إذا كان الهدوء إلى يتضمن على  
وجه من الوجوه ، فإني ما في سائر الكتب التي لا علم لي به وإنني - مع عذري  
على لدعوة إلى حرية الفكر في جميع المسائل أرى صور أو خطأ ، أن  
الناقشات المباشرة التي ناقص المسيحية والإيمان بوجود الله فهي يكون لها أثر على  
جمهرة الناس ، وإن خير وسيلة لتحقيق الحرية الفكرية أن تقدم العقول تبعا لتقدم  
العلوم ، ولهذا أرى أحب الكتابة في أمور الدين وأقصر كتابي على المسائل  
العامة »

وعاش دارون حياة على هذا الرأي ، مؤمنا بأن مذهب لا يقتضي من لعمل  
أن يبي وجود الله ، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده ، وأن الإيمان بأية ديانة

من ادبيات لا يتوقف على الفصل في قصبه تصور إلى الرفص أو إلى القول  
أما الفريد رسل ولاس ، شريك دارون في القول بتعدد الأنواع من أثر  
لائحة لطيبي وعوامل الية طبيعية ، هذا كان مؤمنا قوى الإيمان بوجود الإله  
وكأن مرقبه عوامل لطيفة سنا لتصديقه بالمعجرات وحوار في العادات .  
لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل في لطيفه أنها لا تجري على هذا المجرى  
لأنه حكم العمل أو الحكم التفكير مطلق ، وإن كان يجوز أن تجري على غيرها هذا  
أو على مجرى آخر يساويه ويمثل في حكم العقل والأقضية المطلقة ، وإنما هي  
الإرادة الإلهية التي أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، هيست المعجزة التي  
يريد لها أعرب من نظام العوامل المطردة في ظهور الكون ، ومرجعها جميعا إلى  
الإرادة الإلهية على أطراف أو على استثناء

• • •

ومن عقدة يباحي المذهب في مسائل الميت ، فهم أن العلماء والمفكرين في  
أعرب ينقسمون هذا لا يقسم وأن نقول بأن عدد من العلماء أو فيسوفيا من  
الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لا يدلنا على رأي محمود يراه في الدين  
المسيحي أو في الدين عامة ، لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من  
المكفرين أو لمتردد بين ، حسب المنهج الذي يتجه في تفكيره وأساليب استدلاله

ومن المفكرين والعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو الفكرية ،  
وأشهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين « برجنسون » الفرنسي و « هوبت »  
الإنجليزي ، وهو عند اشتغاله لعميق بالبحوث لرياضية والفلسفية رحل من رجال  
الدين وعالم من علماء اللاهوت

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على انعدام ، ويعتبرون  
انعدام دليلا على وجود الخلق ، ومنهم أعضاء في مجمع العلوم الملكي كالأستاذ  
« جلادستون » الذي يقول : « كثير من المسيحيين من رجال العلم من يدركون  
أن هذه وحدة في انعدام ووحدة في نهاية ، تدعون من خلال نظر إلى حقائق الله  
، ونحى يدين بأن مذهب دارون عن بقاء الأنس لا يظل فكرة التدبير الإلهي أو



مكره لظلم المقصود . بل يؤكد هذه المكرة ويؤكد لها سبيل الطر في لوسائل التي  
حارنها لعدي لاهية لتدير مقاصدها من تقدم . فرى أنها نيحة قانون منظم  
وليس مجرد سلسلة من المفاجآت المتعقبة »

• • •

أما المكرون من علماء الطبيعة ، فحجتهم في الإنكار أن لعيدة الديو تقوم  
على الخوارق والمعجرات ، وأنه لا سبيل إلى التوفيق بين عقيدة تقوم على خرق  
قوانين الطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هذه القوانين  
وأشهر القائلين بهذا الرأي بين علماء الطبيعة « أرسط هكل » الألماني  
و« توماس هكسلي » الإنجليزي ، وهو أقرب إلى الاعتدال في الإنكار من زميله

لهيكل يقول : « إن العقيدة الديو تعني دائما تصديق معجزة خارقة ، وهي  
هذه لكافة قائمة على مناقضة ينقطع الرجاء في لتوفيق بينها وبين عقيدة العقل لطبيعية  
وهي - على خلاف من العقل - تذهب إلى فرض العوم فوق الطبيعة ،  
وتحق من أجل ذلك لم يشاء أن يسحبها خرافة أو غير طبيعية - وإن ذلك  
الوحي المدعى الذي تأمنت عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت النتائج  
التي وحصل إليها العلم الحديث » .

وهكسلي يقول : « إننا أمام الأمور التي لا شك في بعدها عن الاحتمال - لا  
يقوم إن محض في طلب البرهان المقنع لتصديق وقوع لمعجزة الخارقة بل يقول إن  
الواحد الأدبي يتقاصد أن يجد هذا البرهان قبل أن ملحد تلك لمعجزة الخارقة ملحد  
الحد والاعتبار ، ولكما يد كما بدلا من الوصول إلى ذلك البرهان المقنع -  
لا يرى أمنا إلا حكايات محفل كعب شأت ومتى شأت بين أناس يستطيعون أن  
يصدقوا كل التصديق أن الشياطين تتلص بأحاسام الخارير ، فإني أصرح بأن  
شعوري إنما هم شعور الدهشة من أن أرى الإنسان العاقل ينظر إلى شهادة هؤلاء  
عطرة جديدة » .

• • •

وعلى مثل هذا المحور يدور الخلاف بين لعريفيين اللذين يتفقان في قبول مذهب  
 لتطور ، ولكنها لا يتفقان في الحكم على دلالة من الوجهة الدينية ، ولكن هذا  
 الاختلاف لا يرجع إلى المذهب في ذاته ، وإنما يرجع إلى طريقة لتصرفه وطريقة  
 التفكير التي تعودها ذهن العلم أو الفيلسوف ، فرى حرج لدهتان بتيجتيين متناقضتين  
 من فكرة واحدة يراها أحدهم برهان على وجود الله وبرها الآخر مغيبة عن البحث  
 في إثبات وجود الله ، وقد سأل دانييل بونديرت أكبر علماء الصمت في زمانه -  
 لابلاس : عن مكان العناية الإلهية في حركات الأفلاك ، فكان جوابه أنه لا  
 يرى ها مكان فيما يعلمه من تلك الحركات ، كأنه يقول إن قوانين الحركة وحدها  
 تفسر دورة الصمت تفسيراً يحيى عن لتظر إلى عدة أخرى ورائها ، وهو أسلوب من  
 التفكير ناقص أسباب الدهى الذى يراقب دوره الصمت ويعلم أن العقل لا يستلزم  
 حصولها على هذا الوجه دون غيره ، وأنه لا بد - إذن - من اسحت عن  
 الإرادة التي اختارت ها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عليه ..

ولعل السارق بين هذين لتطين من لتفكير يتعلق بالنظرة إلى النظام والمعجزة ،  
 فمن كان من القائلين بالتطور مؤمناً بالعناية الإلهية فتطريقته في لتفكير أن يستدل  
 بالنظام الخلق على وجود الخلق ، وأن يرى بعد ذلك أن المعجزة لا تستلزم مع  
 الإيمان بالقُدرة الإلهية والحكمة التي تستدعيها ، إذا كان هناك ما يستدعى صعب  
 للمعجزات في رأيه .

ومن كان من القائلين بالتطور معطلاً لتعقيد الدينية ، فتطريقته في لتفكير أن  
 الترفيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين حرق هذه القوانين لإثبات  
 عقائد الدين .

لكن الرأى الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء  
 من رجال الدين مذهب التطور عند إعلانه قبل عدة سنة لم يكن من سداد الرأى في  
 شيء . وأن هذه المعارضة ينبغي أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة  
 مسيحية التي لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة ،

ويعبر عن هذا الرأي في كتاب مؤلف هذا الغرض عالم من أكبر علماء الرياضيات  
وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكية  
وصاحب كتاب « العلم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأي فيه كله على هذه الفكرة  
سواء فيما يرجع إلى مذهب التطور أو إلى غيره من مذاهب العلم الحديث

## سلسلة الخلق العظمى

سلسلة خلق العظمى مذهب يوارى مذهب التطور ، وينمشى معه في معظم الطريق . ولكنه لا يثنى معه من البدية ولا يتهى إلى العاية

وصعوبة نقول بسلسلة الخلق العظمى ، أن الوجود درجات متفاوتة في ترتيب الصفة والشرف ، بتدنى من المادة الأولى التي لا صورة لها وترتفع إلى مرتبة الوجود الإلهي الذي تمحص له العلم والخبر . فهو علم لا يعرض له الجهل ولا يحتاج عنه سر ، وحير لا يشوبه الشر ولا يقع له في إرادة

وهذه السلسلة العظمى كاملة في انتظامها لكل حلقة من حلقات الوجود ، وكل قاسية من قابليات الصفات والأعراض ، فلا تخرج السلسلة العظمى من إحدى هذه الحلقات ، ولا يعقل أن توجد في الامكان قاسية لشيء قط ولا توجد في الواقع مع حلقة من حلقات الوجود السبى أو العلوى ..

• • •

والرند الأكبر هذا المذهب بين الأقدمين أفلاطون الملقب بالحكم الإلهي ، فهو احدى وضح هذا المذهب توصيحا فلسفيا وبناء على حجة عقيدة . وهي أن الإله وهو خير محض - يأبى له كرمه أن يفض على شيء ، كائنا ما كان ، نعمة الوجود . فهما يلح من حقارة شأنه فهو مستحق خصته من الوجود في مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يصعد من هذه المرتبة إلى ما فوقها بصفة من الله وتما ركب في طبائع الأشياء من شوق إلى الكمال

والراشح أن هذا المذهب وصل من الهند إلى حكماء اليونان من طريق العداد السريه التي عرفت باسم الحن « الأورفية » وسبق ناقله من كبار الفلاسفة النان هم فيثاغورس وپندوقليس ، وكلاهما نمون شاسع لأرواح . وينشطس في معيشته على نظام انرياضة الصوفة والرياضة البدية ، وبين أتباعها من كان يجمع بين التقشف وممارسة الرياضة البدية ونفوز في مديرياتها المعمة .

وقد كان فيثاغوراس يحسب أكل اللحم . ويقسم الأغذية إلى صالحة للروح وغير صالحة لها سيمية ، وكأنه كان يحرم أكل اللحم لأنها مأكلة السبع وحرم أكل البقول وما إليه لأنه مأكلة البهائم . ويحسب أن الأرواح تستقل بين الأجساد لترتفع أو تهبط إلى درجات الخلق ومراتب السيمية والروحانية ، وله من الأقوال المقتضية ما يشبه مذهب الهند في النورات الأبدية التي يحسبها عدد مقدور من ألوف السنين ، مع قسمة السن إلى شمسة وكوة

• • •

وحاء بعده اميدوقليس ، لقسم درجات المادة واعتبر العناصر الأربعة أشرفها وأعلاها ، وسماها بالحدود قبل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعصر الدر وعنصر الهواء وعنصر الماء وعنصر التراب

- ولعالم عند أصحاب القول بالسلسلة العظمى ، عالمان : كبير وصغير ، فالعالم الكبير Macrocosm هو الكون كله ، ويشتمل عليه من كائنات علوية وسفلية ومن مراتب روحية وسيمية ومادية ، والعالم الصغير Microcosm هو الإنسان ، لأنه يحتوي في تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة ، ويتقبل الارتداد إلى صفات العلم والخير ، أو صفات العقل والتدبير التي تمت للإله على أكملها وأرفعها ، كما يتقبل الهبوط إلى مرتبة البهيمية وما دونه ، وفي الإنسان شيء من خصائص الأجسام المادية ، وشيء من خصائص الأجسام اساتية ، وشيء من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشيء من خصائص الروح الذي يكون للملائكة بغير جسد ، وشيء من المعرفة التي يقترّب بها من الصفات الإلهية .

ولد ينقل مذهب لسلسلة لعظمى من الهند ويهود إلى العرب ، وانتقل من العرب إلى متصوفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية وجعل تسم عرش النابوية في آخر سنة قبل نهاية القرن العاشر ( ٩٩٩ م ) وهو سلفسور لثاني ، وظهرت آثارها في أقوال القديس توما الاكوينى والبرت الكبير « ويرى الأستاذ آسبن بلاسيوس الاسمان أن برعات دينى الصوفية وأوصافه لعالم العيب مستمدة من محي الدين بن عربي بغير تصرف كثير ، ومن المعلوم أن أول املاسة الصوفيين مر

العربي جوهري اكدت لألمى - نشأ في القرن الثاني لعصر ابن عربى  
ودرس في جامعة باريس . وهى الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في  
الحكمة والعلوم<sup>(١)</sup> .

ولعل كهدرت هو أسبق المقتسبين من المتصوفة العربيين لقول ابن عربى ، إن  
الله هو الوجود الحق وإن كل ما عداه من موجود موجوده عارية ، وهو قول في  
جعلته بعيد إلى الله قول أفلاطون إن الله هو مقياس كل حقيقة رد على  
بروتاجوراس Protagoras الذى كان يقول : إن الإنسان هو مقياس الوجود ، وإن  
الله أنعم على الإنسان بالحياة ، الرمية ، لأن الرسم محاكاة للوجود الأبدى الذى  
احتصن به الإله دون سواه ، وليس بين القولين تناقض في النهاية ، لأن أفلاطون  
يعود فمحفل العقل صفة الله لعلي - درجة يلغها الإنسان ولا يدركها  
من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعلو بالعقل فوق مرتبة لادته التى تترج بالعقل في  
تكوين الإنسان .

• • •

وقد كان لعلمة أرسطو نصب غير قليل من الأثر في توجيه عقول الأوربيين منذ  
القرون الوسطى إلى مذاهم أو أقوالهم ، في سلسلة الوجود العظمى ، لأنه رتب  
الموجودات على حسب نصيبها من الحسن ، وقرب بين النبات والحيوان ، فجعلها  
مشتركين في « النفس » النامية ، وكاد أن يجعلها رتبة من رتب العقل يتوسط فيها  
النبات بين الجماد والحيوان ، ولم يكن في تصفقه للكائنات فاصل حاسم بين الحيوان  
وما دونه لأن « الولد » لدائي « كان في تقديره من السمكات » وانقصت بعده  
القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قل أن تظهر للعلماء استحالة تولد الحيوان  
من غير الحيوان

وتقل اللاهوتيون الأوربيون فكرة سلسلة العظمى ، كما وصلت إليهم من

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية المؤلف

معكروى العرب ومنصوفتهم ، فلم يجدوا فيها تناقضا يسكروه بين لقول خلاص  
 الإنسان بالإيمان وفوق سطره وأفلاطون أن العقل هو الصفة الإلهية التي يتحلى بها  
 الإنسان ويعتد بها من أفق الخلائق الذي إلى أفق الصفة الإلهية وإن الإنسان معرفته  
 للأشياء يحتويها ويمسكها ويؤمن على تديرها بحكمة لقدرة الله على تدير الخير  
 مخلوقه ، فإن التناقض بين خلاص الإنسان بالإيمان وخلاصه من أوهام المادة  
 بالعقل والمعرفة ، يطل ويزول متى اعتقد المفكر أن العقل الرشيد سبيل إلى الإيمان  
 بالله والتعويل على البركة الإلهية في تظنعه إلى اسحة والخلاص .

وم يصطدم الربان من بعض الحواش إلا بعد ظهور فلسفة ابيلاز ( ١٠٧٩ -  
 ١١٤٢ م ) الذي فسر لسلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية تشوع كل  
 الممكنات ، فيستحيل أن يوجد شيء غير ما هو موجود ، لأن الخلق في علمه  
 وقدره يعلم جميع الممكنات ولا يعجز عن تحقيق ممكن منها يعلق بعلمه ويردته ،  
 فأنكر علمه معاصره برنارد دي كليرفو ( ١٠٩١ - ١١٥٣ ) داعية الحرب  
 الصليبية الثانية ذلك التفسير ، وقال إنه يناقض ما ينبغي أن تؤمن به من غضب  
 الله على الخطيئة والردية ومن إسماعه بالخلاص على الخطية ، وكان القديس  
 توما الاكوييني ( ١٢٢٦ - ١٢٧٤ ) يميل إلى تأييد برنارد في اعراضه على تفسير  
 ابيلاز ، ويكاد يعيد ردود القراني على ابن رشد في مثل هذه المناقشة ، فيقول -  
 إن خلق الله لهذه الموجودات على سنها التي أودعها فيها لا يعني قدرته على خلق  
 غيرها رائدا عليها ، ولا يعني قدرته على خلقها مرة أخرى في صورة غير هذه  
 الصورة ، فليس انتظام سلسلة الخلق مانعا أن تنتظم ها حلقات غير هذه الحلقات  
 وسلسلة غير هذه السلسلة مع استيعاب الله جميع الممكنات ، لأن التبديل في  
 الممكنات غير مستحيل وجاء بيكونديلا ميرندولا ( ١٤٦٣ - ١٤٩٤ )  
 Pico della Mirandola فقال بما كان يقوله منتصوفة المسلمون من قبول الإنسان  
 لأرفع المراتب وأدناها ، وإن كل مخلوق قد يلزم مكانا من سلسلة الخلق لا يعنوه  
 إلى ما فوقه ، إلا الإنسان فإنه لا يتقيد بمكان من السلسلة العظمى غير لمكان  
 الذي يرتصيه نفسه ، علوا إلى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سحلا إلى مرتبة البهائم  
 والحشرات .

وعاد البحث في مكان الإنسان بعد كشف كوبرنيكوس لنموذج الأرض حول الشمس ، وتجدد المناقشة عن مركز الحقيقة وعن مكان الإنسان على هذا المركز حذر . فقد يجزم أن يكون للعالم الأرضي نظره له من انوار السهاريه وأن يكون تلك انوار سكاه من الخلال العقلاء ، ولكن هذه مناقشة لم تخرج أساس الفكرة التي تسلسل الموجودات من أدناها إلى أعلاها في العالم المعروف ، وفي كل عالم يمكن أن يعرف قياساً عليه ، وظلت فكرة المسئلة المعنى عالبة على الباحثين في مركز الإنسان من الحقيقة ، وقال بها فلاسفة لشعراء كما قال بها فلاسفة الحكمة والدين إلى زمن قريب . وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الإنجليزي إسكندريوت ( ١٦٨٨ - ١٧٤٤ ) قصيدته الكبيرة التي سماها مقالة عن الإنسان ، وقال فيها مخاطب الإنسان

« اعرف إذن نفسك ، ولا تدع الإحاطة بعلم الله

« إن دراسة الإنسان المثل هي الإنسان

« قائما على برزخه هذا من الحالة الوسطى

« مخلوقا عاقلا في طرفة ، عظيما في خشونة

« أعلم من أن يكون « شكركا » لا يدري

« وأضعف من أن يكون « رواقيا » يصير

« معلقا بين العمل والراحة

« معق بين الإلهة والبيعة

« معلقا يتردد بين إرشاد عقله أو يده

« يولد ولكن يموت ، ويعلم ولكن ليخطئ »

« محيط به الجهل نقص علمه أو زاده

« ويحتلظ أمره في فوضى من الفكر والشهوة

« وهو الذي يسعى إلى نفسه أو يتجنب الإساءة



« مخوفاً بصفه يرتفع ، و بصفه ليحدر »

« سيداً لجميع الأشیاء ، و مربية لها جميعاً »

« وهو الحكيم الوحيد فيما هو حق و باطل . ولكنه يصير في خطأ دلم »

« ولا يزال فخر الخليفة ، و سخرتها ، و لغزها انهمس ، في آت »

و هذا هو مكان الإنسان الأوسط ، بين حلقات هذه السلسلة العظمى

« لئى إذ انكسرت إحداها وقع الخلل في سائرهما »

و جاء بعده شاعر آخر هو جيمس نوميسون صاحب قصيدة الفصول ( ١٧١٠ )

( ١٧٤٨ ) فتظم الوجود من طرق هذه السلسلة العظمى « بين الكائن الذى لا حد

له ، و بين حافة الهاوية السفلى و انعدم المهرب »

• • •

و توقف بحث في سلسله الخلق العظمى بعض المتأقفين أو حر انقرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر ، ولكنه لم ينقطع « لا نعتقد أن لا مصراع عن البحث يعرض لمسألة الإنسان و مركزه من مركز في رسم من الأرقام ، و إنما انقطع البحث قره بسيرة ، لينحدد بكل ما يستطيع من قوة مع البحث في مذهب التطور و في علوم الأحياء عامة و علم الإنسان خاصة على هذا النطاق الواسع انتهى يشمل اليوم علم الحياة أو « البيولوجى » و علم الحيوان « زولوجى » و علم الأحاس البشرية ، « الأنثولوجى » و علم الإنسان ، « الأنثروبولوجى » عدا مباحث شتى تتصل بمعلومات العامة عن الإنسان و مركزه بين الكائنات في آراء علماء لطبيعة و آراء فلاسفة و المفكرين .

• •

و يعود إلى السلسلة العظمى عند العرب الذين نقلوا أهم مصادرها إلى الأوربيين .

فقولهم عنهم « كما تقدم » من مصادر شتى ولم يجمعوها دستورا عاما يحدد بالموحودات و يمرر للإنسان مكانه على مذاهب نقائيل بتدك المسئلة . لأن مكان الإنسان كما ورد في آيات القرآن الكريم أعاهم عن نقول ممكنة يسه

إلى سلسلة خلق ، ويلحظه بها برما عني طريقة الأقدمين في إلحاقه بعبر الخلائق  
الآدمية .

وإنما عرفت حكماء العرب أقوال تشير إلى ترتيب لسلسلة في موضع متفرقة من  
بحوث العلم أو الدين

ومما ترتيب آفاق الموجودات كما تقدم في فصل : المتطور قبل مذهب المتطور :  
من هذا الكتاب .

ومما الكلام على : النفس والروح والعقل ، والتفرقة بين مراتبها ، ابتداء من  
نفس التي كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة في الخلائق البالية ، إلى الروح التي تعود  
على النفس في هذا الاعتبار ويمتاز بها الإنسان عما دونه ، إلى العقل وهو الصفة  
الالهية التي تتحلل بها الإنسان ويقترب بها من فوق الخلائق أو المحرك لدى تقرب منه  
الموجودات بمقدار حركتها إليه ، وترفعها حركته للإنسان إلى معرفة وشوقه إلى لكافة

• • •

وعرف القول بالعدم الأكبر وعالم الأصغر بين المتصوفة ، كما جاء في آيات  
تنسب إلى الأئمة على سبيل طوطم وتم تتحقق نسبتها إليه ، ومما عن الإنسان  
دواؤك فبك وما تشمر ودواؤك منك وما تفكر  
وترغم بك حرم صعد جبر ، وقت انطوى لعالم الأكبر

ورفق القول بحجة الإنسان بعقده ما ورد في آيات القرآن الكريم من الأمر  
بالتهكير والسهر ، فقال به كثيرون من حكماء الإسلام ثم فرق المتصوفة والمتسككون  
بين صريين من المعرفة أحدهم يستقيم بصاحبه على سبيل هدية ، والآخر يلتوى به  
دون قصد اسبيل ، وكذلك قال ابن مسكويه بعد كلامه لمقدم في فصل آخر

« إن هه الشوق ربما ساق الإنسان على مهب قوم وقصد صحيح حتى يسهى به  
عادة كثره وهي سعادته انتامة وفيها يتفق ذلك وربما اعوج به عن انسمت  
والس ، وذلك لأسباب كثيرة يعول ذكرها ، ولا حاجة بك إلى علمها الآن  
وأنت في تهديد خلقك فكما أن الطسعة لندره للأحسام ربما شوقك إلى ما ليس  
بها محسوس الطسعى لعل تحدث به وآفات تطرأ عنه هرة من يشاقق إلى أكل بطير

وما جرى مجراه ، مما لا يكفل حقيقة الجسد من هدمه وفسده - كذلك أيضا  
 انفس الناطقة رعى اشتاقت الى التطور والتحير الذي لا يكملها ولا يشونها نحو سعادتها  
 بل يحركها الى الأشياء التي تعوقها وتقصرها عن كمالها . فحينئذ يحتاج الى علاج  
 نفساني روحاني كما احتاج في الحالة الأولى الى طب طبيعي جسماني . وبذلك نكثر  
 حاجات الناس الى نقومين واسفعين وإلى المؤدبين والمسددين . فمن وجود تلك  
 الطوائف الفاتكة التي تنساق بذاتها من غير توقف إلى لسعادة عسرة الوجود لا توجد إلا  
 في الأرملة الطوال ولدند البعيدة وهذا لأدب الحق الذي يؤديها إلى غايتها يجب  
 أن يحيط فيه مبدأ الذي يجري مجرى الغاية . حتى إذا لحظت الغاية تدرج بها إلى  
 الأمور الطبيعية عن طريق التحصيل ثم يندى من أسهل على طريق التركيب .  
 ويبقى أن يعلم أن كل إنسان معد نحو فصيلة ما ، فهو إليها أقرب وبالوصول إليها  
 أخرى ، ولذلك نصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، إلا من اتفق له  
 نفس صافية وطبيعة فائقة فيسمى إلى غايات الأمور ومن غنة عبادتها ، وأهني  
 لسعادته القصوى التي لا سعادة بعدها .

ويرى المتصوفة أن المعرفة معرفتان كي يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه ،  
 وينقسمون إلى معرفة بدنية ومعرفة كسبية ، ويقصدون بالمعرفة البدنية ما  
 يدركه الإنسان بالاهام والاستشراق وينتدى إليه برأصة انفس وقبح الجسد ، وهي  
 معرفة غير معرفة بتعليم والدراسة . على حد قول سعد بن أبي الحخير فيما روى من  
 كلامه عن ابن سينا « أن ما يرى على صوء الصباح يصل إليه هذ لأعمى  
 بمكازه »

ويتممه قول ابن سينا عن مجلس اصادق أنه حالة يقاس بها عقل الإنسان  
 مصدر لقول جميعا ، يدرك بالاهام والوفيق ، ليس يدرك بتداء بالدرس  
 والبرهان

• • •

وفي غير هذا الفصل بيان لمذهب حجة الإسلام للإمام العراقي في حكمة  
 الموجودات وحكمة خلق الإنسان بين حالات السماوات والأرضين ، وهو أمثل ما  
 يقال عن سلسلة الخلق المعظمي تصير أهل السنة ، على هدى القرآن الكريم .

# الإنسان في عالم الحيوان وفي علوم الأجناس البشرية

الإنسان من الفقاريات Vertebrates ، ومن الأوائل Primates بين الفقاريات ،  
وهذه الأوائل تسمى أحيانا «بشریات Anthropoids» وتشمل الإنسان والقرود  
الغيا - وهي الغوريلا - ولاوراج - ، والشيمانزي - ، والحيون - .  
ويخصص الإنسان من بين البشريات باسم مميز وهو اسم الجنس Homindae  
كما تختص القرود على عمومها باسم السائيس simidae فيعرفهما هذان الاسمان  
حيث يجمعهما اسم البشريات .

ويرى بعض علماء الأحياء أن اسم الأس يطلق على الكائن لدى وجدت بقية  
من جمجمته في حفائر حاوه وأطلق عليه الدكتور ديوب Dubois الذي وجدته أسفة  
Pithecanthropus Erectus بدلالة بقاياه على اعتدال قامته وامتياره باتساع الدماغ  
على البشريات ، ولكن الرأي الغالب اليوم أن النوع الإنساني بمراحه التي يقرب له  
اليوم غالف في الخصائص إنسية لصاحب تلك الجمجمة ، وأن هناك احتلافا غير  
قليل بين أناسي الحفائر من قبيله وبين الإنسان الذي يطلق عليه اليوم اسم الحيوان  
الماطق أو العارف أو المميز Homo Sapiens من الكلمتين اللاتينيتين «هومو» بمعنى  
بشر - و «سابير» بمعنى ذى فهم أو ذى إدراك أو ذى كياسة

• • •

ونقل هنا خصائص نوع لانساني في علم الحيوان ، كما أثبتها أقدم الكتب  
العلمية التي عثت مذهب التطور باللغة العربية ، وعينها بإيراد أوجه الاعراض  
عليه وأوجه الاختلاف بين الإنسان وغيره من البشريات من الوجهة التشرحية كما  
قررها علم الحيوان قبل نهاية القرن لتاسع عشر ، ومعنى به كتاب «توير الأذهان في  
علم حياة الحيوان والإنسان» مؤلفه الدكتور بشارة رنزل وقد صدر الإذن

نطبعة من مطبعة المعارف بالآستانة بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٩٧ وتم صعه بعد ذلك  
مطبعة مجلة الجامعة في الإسكندرية

قال المؤلف في الصفحة (١٦٧) من المجلد الأول « فإذا نظر إلى الإنسان على  
سبيل المقابلة بتلك القردة لقي هي لا شك أقرب الحيوانات إليه ، يرى أن الإنسان  
ماش منتصب القامة على قدميه . لأن سسنة ظهره مقوسة في عنق وفي ظهر وفي  
انصب ، وليس للقردة شيء من ذلك . وحيث ذلك على ما قال بعض المدققين  
ريادة نحو بدماع ، لأنه يؤدي إلى كسر القحف ، فتغير الجلدة بدليل عدم استوائها  
في الأضلاع وبما عليه تكون مورثة الرأس لئلا سبب لاستواء حجمته على  
العمود الفقري ، وقالوا إن الأقواس الثلاثة المذكورة تكون في المتمددين أوضح مما  
هي في المتوحشين . وعلى الحيلة فإن مورثة الرأس مع بدن في أكثر الحيوانات  
النبوة تباطؤ بالأربطة العنقية ، وهي قوية جدا في القردة بالعصلات لتبنة التي  
تدعم في لقدام والسناس (التنوعات المشوكية) وهي فيها أطول وأغبط مما في  
الإنسان بصغير ، ويتوقف عليها وعلى انزاس حفظ الرأس على الوضع الأقوى فلا  
يصعظ على لصدر لذلك ، وليس الأمر كذلك في الإنسان لأن ثقل حجمته  
يتكاثرا مع ثقل البدن الوحي فيستوى الرأس على الحامة بدون أن يكون للعصلات  
والأربطة العنقية إلا المداطة على مورثة المذكورة ومقاومة ميل الرأس إلى الأمام  
ودنت كانت هذه الأربطة في الإنسان ضعيفة . قال الأستاذ بروك Proca وتبعه  
كثيرون ، أن السبب في تنصب قامة الإنسان ومستوائه مانع على قدميه كما هو مو  
الدماع ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتي الحركة والنظر مسجها إلى الأفق .  
وطفل الإنسان يشبه الدبابات ، لأنه عديم الأقواس الفقرية فلا يظهر لقوس العنق  
إلا متى ابتدأ الطفل أن يصبط رأسه في الحسة التي يعود عليها . وذلك في الشهر  
الثالث من عمره . وفي السنة الثانية عدا تكون لقوس الظهر من جراء فعل  
العصلات الظهرية ولصلية ينقطر أسفل للعمود الفقري ، ودنت إذ يتبدى الطفل  
أن يدرج

« والحيلة فإن الخاصة التي يصدر عنها حسن تقويم الإنسان ويتوقف عليها  
مثيره على سائر الحيوان ، وتفاوت بحسب مراتب الأمم في المدنية إنما هي مو

الدماغ وزيده حجم الجمجمة . وقد أجمع الباحثون على أن معدل وزن الدماغ في  
الأوريسين يكون متوسطه في الرجل ١٣٦٠ غراما وفي النساء ١٢٠٠ غرام .  
وأعلاه ١٦٧٥ غرام . وأدناه ١٠٢٥ غرام . وما نقص عن ذلك يدل على  
اللاهة نعمة أو آفة .

« وانقرود الشبيهة بالإنسان أكبر الحيوانات دماغا . ومعدل وزنه المتوسط فيها  
٣٦٠ غرام . وندية ما يبلغ في الأوريسين ٤٢٠ غرام . وقد عد ذلك من الشوارد  
. وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة انحناء ويفل الدور الوجهي ، والفرق بين  
الإنسان والحيوانات من هذا القليل أوضح من أن يبين . وإذا نظرت إلى جمجمة  
إنسان من الأعلى لا ترى الدور الوجهي خلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القرود  
وغيرها من الحيوانات . وإذا نظرت إلى جمجمة القرد من جانب ، ترى الوجه  
شاحصا إلى الأمام يؤلف خطا مستطيلا . وذلك من الخصائص البهيمية ويستدل  
على معرفة درجة هذا الدور بأرادية الوجهية . وفصلا عن ذلك فإن الجزء الوجهي  
لعظم الوجهي قليل نسبته في الإنسان بخلاف ما هو عليه في القرود . إذا نظرت إلى  
الجمجمة من الوراء لا ترى الثقب المؤخرى في جمجمة الإنسان وراه كله أو قسما  
منه في جمجمة القرود . وهذه الأعراف لدالة على الشراسة والبصوت البهيمية في  
القرود غير موحدة في الإنسان وهي لازمة فيها عن نمو عضلات المضغية التي يترتب  
عنها تحريك الفكين الصغرين . وعن نمو عضلات القدر التي يتوقف عليها سداد  
الرأس على العنق . ومعروف أن فحف الخيول الصغيرة لا يتسع لاندغام هذه  
عضلات فيه ، فحيث وجدت اضطراب السيج العظمي في إبان نموه أن يهيئ لها  
منذما ، عشا عرقا . والسيل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد في القرود  
الصغيرة . ومثل ذلك يقال عن لتؤات الشوكية البارزة في عنق العود ، وذلك  
هذه الأعراف وانتؤات أصغر في الأوران مما هي في سائر القرود . يتوارى رأسه على  
سده . فيرى الخطم الثقيل مدلى عن صدره . وأما ذلك حصص الألكياس الحجرية  
تلتطيفها لصعظ عظمه على محرى الهواء . أما الخيول فخطمه صغير وأعراه قبيلة  
استواء والألكياس الحجرية غير موجودة فيه . فهو أقرب القرود إلى الإنسان ولكن

منه في عيه ببعده كثيرا عن الإنسان ، لأنه يتوكل عليها في منيه كما يتوكل الإنسان على هراوته .

« ومن الخصائص الفارقة بين الإنسان والقرود انهما الرجل ، فهو في القرود أشبه بالهم اليد لأنه يقوم كلا من الأصابع وبلاستها ، وهو ليس كذلك في الإنسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشي وانتصاب العمدة كما أنه يناسب في لقرود حالة التسلق والإمساك .

« ومن هذه الخصائص تباين شكل الأسنان وحجمها . فأسنان الإنسان بالنسبة إلى جسده أصغر مما هي في القرود ، وهذا تأمل في لصورة راعك من مظهر انمول أبيه . أما السواجد والظوح في هذه الحيوانات فكثير جدا . بالنسبة إلى طول انقسم الوحي من الحجمة . وما عدا ذلك فإن وضع الأسنان في سجع الإنسان على سق منتظم خلافا لما يرى في القرود حيث يتحلل نالي انك العوى وشبهه حلاء تتداخل فيه أسنان الفك . والخصائص المميزة للإنسان تزداد وضوحا بتقدم المدنية والعمارة ، لأن اختلاف طرق العاش يؤدي إلى تنوعها فتتعد عن الحالة الصعبة كما ترى في ألباس العمود لفقرى ، فإنها في المتدنيين أكثر وضوحا كما هي في المتوحشين »

ويرجع علوم الإنسان إلى علم حيوان لدراسة تواريح اشهر لاجتماعية ، كما يرجع إليه حياء في دراسة تقدمهم الثقافي منذ وجد الإنسان بخصائصه المعروفة بحيوان الناطق *Homo Sapiens* . وفي وجود هذا الإنسان في العصور السحيقة التي استخدمت بها الآلات على شيء من الحشونة البدائية وبشيء من أجل هذا . أن هذه العلوم قد تأثرت بمذهب التطور كما بسطه لامارك ، وكما بسطه درون من بعده ، ولكن الأصح أن المعلومات المتشعبة التي تجمع من درس الحفائر وطبقات الأرض ورحلات الجغرافيين والسعويين بين أرجاء العالم القديم والعالم الحديث . قد كان لها أثرها البين في مذهب التطور وفي مآثر العلوم الإنسانية المتعددة . ومن علم السلالات وعلم الإنسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم المدنية بين اللغات . . .

ومحصل هذه المعلومات المتشعبة بين العلوم الإنسانية أن ابشر وجدوا وانتشروا على جهات متقاربة من العالم القديم منذ العصر « الميوسين » *Miocene* قبل نحو مليوني سنة ، وأنهم كانوا يومئذ على حالة متوسطة بين الحيوان الداهق وطبقة بشرية دون هذه الطبقة ، ثم تميزت خصائص الإنسان بعد ابتداء العصر الحليدي منذ نحو مليون سنة ، ولكن الإنسان الذي استخدم الآلات وصاغها من العظام والحجارة لا يعرف له تاريخ جلي قبل هذه تراوح في تقدير العلماء بين مائتي ألف ومائة ألف سنة وكانت بداية انتشار الجماعات الإنسانية بين انقراضات الثلاث منذ العصر الحجري الأول ، ثم تلاه العصر الحجري الحديث الذي تميز فيه الإنسان بأكبر مزاياه ، وهي الوحدة الاجتماعية ولقدرة على استخدام الآلات ونار وتسخير مائمه مخلوقات ، وتدجين الأوبك على مراحل متتالية ، أواخر مرحلة تدجين الكلب للاستعانة به في الصيد ، وثاني بعدها مرحلة تدجين الماشية والحر والحصان للاستعانة بها في الزراعة وفي الانتقال من مكان إلى مكان حيث يوجد الكلاً والماء

وفي هذه المراحل ملئت الإنسان دماء الخليفة ، ومع منزلة أبي استحق ب أن يسمى نفسه سيد المخلوقات ، ومعهده سبل السيطرة على الحيوان والنبات وظهور لطبيعة حينها احتاج إليها ، ويعتقد بعض علماء السلاسل البشرية أن الإنسان تقدم شأنه الأول في صراعه للحيوان وظواهر الطبيعة ، ثم تقدم شأنه الثاني - والأهم - في صراعه بين وبين أبناء نوعه ، واتسع الفارق بين ملكاته في شأنه الأول وملكاته في شأنه الثاني بمقدار اتسع الفارق بين خيلة التي تلزم للتعصب على الحيوان والخيلة التي تلزم للتعصب على أمته من الآدميين ، ثم ترم لا يتدع وسائل أخرى للتغلب على مساوي الناس في وسائلهم المشتركة

وقد كان الناس قبل شيوع الآلات وتدجين الحيوانات سلالة واحدة ، لا تختلف في سلاج والألوان ولا يظهر بين بقاياهم الأثرية ما يدل على تفرق عبرى كالفروق التي تختلف بين اليوم سلاسل البشر من سكان العدين القديم والحديث

• • •

ويكن ابتداء التعارب بين الشر فرق مواقع السكن ، وفتح الطريق لاختلاف سلاسل على حسب الأقليم والناح والقدرة العملية على الاحتفاظ بالسكن أو على



شجرة منه إلى غيره ، ويعبر إلى حد انشقاق ظهور السلالات الأربع المشهورة وهي التي تسمى عند علماء السلالات بأسماء مختصة ، أوضحها أحمد الورن الشرة . وهي البيضاء ، والسمراء ، والصفراء ، والبيضاء ، وقد أحصى بعض العلماء أربعة وثلاثين نوعا يتراوح من الشرة إلى السواد الفاحم ، ولكنها كلها تنزل إلى ثلاث السلالات الأربع عند تمييز بينها بأشكالها وملاحظتها الحسية

وأبرز الفوارق بين السلالات - عبر لون لشرة شكل لشعر الألف والفك وطول القامة وقد تعرف القرابة بين السلالات التي انفصلت بين القارات من بينها من لغارب في شكل الشعر دون غيره فيرحلون أن سكان أمريكا الأصلاء وسكان آسب الشرقية من أصل واحد ، بل بينهم من التشبه في استقامة الشعر وحشوته ولونه الصفراء في السواد وقد أمكن اليوم تحليل أبرز الفوارق بين سلالات البشر بأسباب المناخ والأقاليم ، فبسبب الألف الأقصر والجلد الأسود إلى قتل الحرارة ، كما سبب الألف الأقوى الطويل والجلد الأبيض إلى برد الإقليم واحتياج سكانه إلى وقاية الزرق واستغنائهم عن نصعة الحسية حيث يلفظ وقع لأشعة على الشرة ويثقل هذا السبب يعانون اختلاف لشعر بين العمومة والفوح وبين الحشوية والتجعد ، وبين الشعر الحريري والشعر القصوى في الشكل والملمس ، ولا يصعب تحليل خاصه عنصرية واحدة بعلة - أو مجموعة من لعلة - ترجع إلى المناخ وأحوال المعيشة .

إلا أن الفوارق الفكرية أصعب من هذه الفوارق الحسية تحليلها بأسباب المناخ وأحوال المعيشة ، وأبرزها فوارق اللغة لأنها نسبة لنصط والتقسيم ، أو هي أدنى إلى تقسيم بالنصايط والعلامات من فوارق التفكير والبراعث النفسية ، وقد تكون علامات اللغة مما يستعان به على جلاء الفوارق الفكرية وفوارق الشعور والاعتقاد واللغات في تصنيف بعض علماءها قد تنقسم على حسب لأحاسيس ولسلالات التي تتكلمها ، ولكنه تقسيم يقع فيه الاحتلاط لاشتراك الأمم في لغة واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتابها إلى أصوات متباعدة في أحاسيسها وعناصرها ، وحير من هذا التقسيم أن تقسم اللغات على حسب تكوينها وتكوين الكلمات ومزج عد نحو في مفرداتها وتركيبها ، وهو تقسيم يصطد الفوارق بين صطلا

كافيا للموازنة بينها والمقدسة بين عوامل التقدم وعوامل الجمود والتأخر في تراكيبها وتعبيراتها .

وتتسم اللغات من حيث التكوين إلى لغات لحيات . وهي التي تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عينا أو إخافها بها ، ولغات التجميع ، ولغات الاشتقاق .. لغات اللمت هي التي تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عينا أو إخافها بها ، وتسمى هذه اللغات بالعروية في اصطلاح الأوربيين Agglutinative

ولغات التجميع هي لغات التي يقع فيها اللمت ويعمل فيها التجميع عند في اختلاف المدلول مع الزيادات التي تدخل على الكلمات أو تضاف إليها ، ومن فروع هذه اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله في جملة تتألف من عدة مقاطع مربية أو غير مرتبة على سق واحد في جميع الكلمات ، ويعب على اللغات التي تتكون هذه التكوين أن تسمى بالمجموعة Polysynthese مع وصفها بالعروية إلى جانب التجميع .

ولغات الاشتقاق هي اللغات التي يتم فيها العمل الثلاثي في كل مادة ، وتحرى قواعد الصرف فيها عن المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيها اختلاف الحركة في أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة .

• • •

ويشبع البحث في اللغات الهندية الجرمانية ، كما يشبع التجميع في اللغات الدولية ولغات القبائل الأمريكية الأصيلة أما الاشتقاق فهو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغة العربية أن تنفرد من بينها بعموم الاشتقاق وإطراده مع مراعاة الحركة على أواخر الكلمات حسب مواقعها من الحمل المفيدة ..

ورعنا اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت في تطور هذه اللغات جميعا ولا تختص بها لغة منها دون سائرهما ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات لاتعطالية التقييدية أسبق من الكلمات الإرادية الفكرية . ويريدون بالكلمات الالهي ما يصدر عن الإنسان عمرا من الأصوات والصيحات التي تعبر عن الفرح أو الفزع أو

الدعشة ، وما تكون الكلمة فيه أحيا من قبيل المحاكاة الصوتية Onomatopaeia  
 كاسم اسبل ، وللككو ، وألحاظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها  
 ويريدون بالكلمات الإرادية الفكرية كل ما يقصده المتكلم ويجرى فيه على  
 القياس والاستعارة وإطلاق القاعدة الواحدة على التشبهات لفظاً ومعنى  
 وأكمل اللغات على ستة التطور والتقدم في الثقافة تلك اللغات التي انتظمت  
 قواعدها الصوتية Phonologie وقواعدها الصرفية Morphologie وقواعد  
 التركيب والعبارات Syntax ويضاف إلى الظواهر الصوتية والصرفية والعمارة في  
 قياس تطور اللغات ظاهرة التميز والتخصيص في الصفات إجمالاً وفي المفردات على  
 التعميم ، كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين  
 جمع لقلة وجمع الكثرة ، وبين الصفات العرضية والصفات الملازمة ، وهي  
 جميعها من المزايا التي لا يحق لكاتب اللغة العربية أن يمر بها عرضاً إذا حذر ذلك من  
 يكتفى بسرد العلامات اللغوية ويغفل دلالتها عند تطبيقها على لغته وقواعدها

ففي صدد الكلام على التطور الإنساني ، وعلى تطور الإنسان الناطق بصفة  
 خاصة ، يحق للباحث أن يشير إلى دلالة الدراسات المعوية على مكان اللغة العربية  
 من التطور وتحقيق الخاصة الإنسانية الكبرى ، وهي خاصة النطق والتعبير  
 بقيام اللغة على القواعد لفكرية ديل لاشك فيه على سبق اللغة وتقديمها على  
 لغات الارتجال الحرفي وصنع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على  
 غير قياس ، وشيوع القاعدة في فعل كل عادة وفي تصريح الأسماء والصفات منها  
 دليل على سبق التفكير في التعبير وتعميمه على الأحداث والمعاني غير موقوف على  
 أصوات الأفعال والمحاكاة ، وتشيع ذلك شيوع الاستعارة وإمكان الجمع بين  
 الوصف الحقيقي والوضع المجازي في كلام المتكلم لتوسيع المعاني وبناء الكلمات على  
 مصداق بين المدلولات .

وفي قدم الإنسان الناطق Homo Sapiens أقوال متفرقة يأخذ كل فريق من  
 علماء الأجناس انبشيرية بقولها ، ويتنهد بعض لا تعداد عن قول مخلفيه  
 ورأى يرى واليوت سميت أن الثقافات البدائية في العالم المعمور تنتمي إلى أصل

واحد وهو أصل الثقافة بوادي النيل ، ومنه انحسرت إلى القبائل لقرية ثم إلى القبائل البعيدة ، فتخلقت معها وانتكست بانتكاسها أو تقدمت بتقدمها على حسب نصيبها من التقدم .

ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأول أوسع من ذلك في أصوله ، وأنه يشمل لحوض الشرق للبحر الأبيض المتوسط ووادي النهرين وأقاليم الشمال من الهند والصين .

والرأى الذي يأخذ بالمفهوم المنطقي ولا يتكلف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقدم الإنسان الناطق حيثما وجد في بقعة من بقاع الأرض ، ولو لم ترتبط هذه البقاع برابطة جغرافية أو عنصرية تدل عليها الآثار وتنفذت ، ولا مانع عند أصحاب هذا الرأي من استغلال ثقافة المكسيك وثقافة اليابان ، وإن حاز الاتصال بينهما قديما قبل عصور التاريخ .

\* \* \*

والآن ، وقد مضت هذه الأشرطة الطوال على الإنسان الناطق ، وعلى ثقافته المتوالية ، يعتقد علماء الدراسات البشرية أن هذا النوع يقوم على معترك الطرق بين وجهات الأمر جميعا وبين قبة في الغد المجهول قد تستقيم به على هج غير مسبوق ، وتشرع له دستور من العلاقات بين أمومه وآحاده لم يعرف لها مثال في حضاراته الغابرة أو حضاراته المعاصرة

إن الأشرطة العائرة قد انقضت - كما تقدم - على مرحلتين شاسعتين ، استغرقتا مئات الألوف من السنين ، مرحلة الصراع مع الطبيعة ، ومرحلة الصراع بين الإنسان والإنسان لتغلب على سيادة العالم المجهول .

ولا تزال المرحلتان ماصيتين في عمدهما السياسي والاجتماعي ، وفي عمدهما الفكري والأخلاقي ، فإن تسخير الذرة إنما هو امتداد لاستخدام النار بدأ قبل التاريخ ولم ينته إلى غايته حتى أواسط القرن العشرين وإن الصواريخ الموجهة بين القارات إنما هي امتداد للسلاح الحجري من ألوف القرون ، ويتساءل المستطعمون للغد من علماء الدراسات البشرية وعبرهم هل من جديد ؟ ..

فإن يكن شك في الجديد المجهول ، فالأحوال المكشوفة للنظر تبيننا أن القديم

غير القديم ، وأن التغيير الذى طرأ على القديم إنما هو هذا التقارب الدائم بين  
أحرار العالم وهذا التشابك المتفصل بين الأعناق فى مصالح الأمم والجماعات ، وهذه  
الوحدة العالمية التى لا تنفصل فيها جماعة من الناس بحظر يصيبها ولا يصيب معها  
القريب والبعيد من الجماعات ، شعوبا كانت أو طوائف وطلقات ..

بين الصراع بين الأمم ، وتغير منه أنه كان بالأمس صراعا بين أمتين لتعليب  
إحدهما على العالم المعمور حول الأمتين ، فأصبح اليوم صراعا بين شطرين من أم  
العالم كله لتعليب لحظة اجتماعية أو إيديولوجية ، على العالم كله بسلاح القوة أو  
سلاح الدعاية ، ومضير هذا الصراع هو القدر المجهول الذى يمدح الإنسانية  
بإحدى حالتين . وحدة عالمية تجرى فيها دساتير الحكم والتفكير والأخلاق على سنة  
التضامن ، والتسامح ولو بين المخالفين فى تفصيلات هذه الدساتير ، أو حرب  
جائحة تشل بالصفقة والآداب النفسية والعقيدة إلى الشنات والاشكاس ، وتعود  
بالأمم إلى أوائل شوط جديد يعيدها كرة أخرى إلى جاهيتها المتروكة منذ دهور  
وعلى العلم اليوم أن يرصد ذلك العث . أو تلك القيامة ، كما يفتح له من  
ومائل النظر إلى الوقع معلوم والعيب المجهول

## الإنسان في علوم النفس والأخلاق

أوسع المذاهب الأخلاقية تحتوي فكرة الحيوان الاجتماعي التي عبر عنها أرسطو بقوله « إن الإنسان مدني بالطبع » وجعلته نموذجاً وحيداً في الكون حين وصفته بأنه « حيوان ناطق » ثم وصفته بأنه حيوان اجتماعي ، تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع .

فليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق والمفطرة الاجتماعية غير الإنسان .

واسم « الإنسان » وحده باللغة العربية يفق عن جذبه ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساساً للألفة الاجتماعية حين تنسب له . وقد لعب الشعراء بما في لحيته من الجنس العظمى فقال أبو تمام :

لا تسين تلك العهود وإنما سميت إنساناً لأنك ناسي  
وقال غيره :

ومسمى الإنسان إلا نسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

ولكن المقابلة بين الكميات قديم وحداثتين ما عن أصل هذا المعنى . فإمكان الأبنس هو الذي يسكنه الناس ، والحيوان لأبنس هو الذي يألف للإنسان في مسكه ، وعبر ذلك من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم الموحش .

ويسرى هذا المعنى إلى النعرات الدرية حديثة ، فيطلق أهل ابدية في الصحراء العربية اسم « لعشيرة » على لشاطي الأهول ، ويطلقون سم الخلاء على ما وراء ذلك من رمال الصحراء التي لا تزرع ولا ترعى ، ولا يسكنها الإنسان ولا الحيوان في عشرة طويلة

إن الحضارة لأوربية مد عهد الفلسفة لأغريقية لم تنفذ إلى  
مذهب محبط « بالإنسان الأخلاقى » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه إلى لباب  
المذهب الأخرى التى ظهرت بعده فى هذه الحضارة

أما الحضارة لغربية فصعة الإنسان فى لغتها وتمكيزها الصق به من أن تكون  
مذهبها نقائه مذاهب أخرى فى معناه أو غير معناه .. إن صفة الإنسان فى هذه  
الحضارة الغربية هى اسمه الذى لا ينعكث عنه . وما من عجب أن « نسب » هذه  
نصفه من انبادية حيث تصح العاصل بين خصائص الأنس وخصائص الوحشة  
عاية الاتصاح

وتكاد كل حضارة كبيرة أن تتأثر بخصائصها فى تعريف الإنسان الأخلاقى . أو  
الإنسان صاحب الصير الذى يناط به الحساب ويوصف بالحفيد أو بالذم من  
الأعمال والسادات

فالإنسان فى الحضارة الإنسانية هو ظاهر وباطن كالوجود الذى خلق فيه .  
وطهره تحكمه قوايين سلوكى العبد ويقاس بالقائيس لاجتماعية وبكل ما ترتبط به  
مصانع المجموع Pluraustie وتسمى هذه لقوانين بدات أيامنا Miamas وبطل أنها  
وقدت إلى الهند مع الشعوب الفاتحة التى جاءتها « بأدب للعمل والحركة » فتصيرت  
تلقفها هذه لطابع بين فلسفات لانزواء والمهرب من الحياة

وباطن الإنسان يستقبل بأص الوجود، ويسمى فلسفته بالساياسا Sannyasa أى  
فلسفة لتجرد من امددة . وطلب الخلاص من لمة الولادة والموت بانكار الحسد  
وقمع لشهوات لندوية والعروف عن صفات سخاوت وكبائرها على السواء .  
ويوشك أن يكون كل مذهب « فصامى » على هذا النحو مستندا فى انبذية من  
أصوله الهندية . وإن كانت سببه مذهب إلى « اليوحا » التى تجعل حسد والطبيعة  
كلها ثبعا لطريضة الروحانية .

وحضارة الصين تميز الإنسان بالمعرفة وتوافق الحضارة الأوربية التى جعلت  
« حيوانا » طبقا « احتياج كما توفى تعريف العلمى الذى يعنى أنه مخلوق مبر ومخلوق  
صاحب ذوق وحساس Homo Sapiens على حد اسمه المأخوذ من اللاتينية ولكن

معروف في مذهب الصين وهي « زن » Zenn ليست علوماً منفصلة المقدمات والنتائج مشروحة القصايا وبراهين وهي حجة كحجة الرشد الذي يبلعه الشيخ مخنك بالنسبة لعراره الطميلة ، قوامها القدرة على مقابلة الحوادث والأشياء مقابلة تنصرف الرشد ، لأسباب قد تعرف عند لشرح واستقصيل وتعرف له براميه رأسانها « معاني ونكبات » ولكنها حاصرة قل ذلك حضوراً ساكنة رصينا في لذهن بعير معالي أو كلمات ، وشعرها عند الحكمة « إن من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف »

وهذا « الإنسان في مذهب اخضررت الكبرى مقبول تعريفاته وصفاته في جميع الديانات والعقائد الروحية » هي وسع نعم لديني أن يقول بصفة جامعة من هذه الصفات دون أن يعرض لمناقشتها ، أو ناقص اعتقادها بدبي تفسيرها على معنى من مختلف معانيها وفي وسع لعالم المادى أن يفسر صفات الإنسان على حسب هذه التعريفات دون أن يلتبس له مرجع وراء المادة والطبيعة محلاً إلى عالم الغيب أو مضمون مبركاً في عالم الشهادة .

هي وسع كل قائل مذهب من هذه المذاهب ان يعلل أخلاق الإنسان جميعاً بتنازع ابقاء مع أبناء نوعه أو مع الطبيعة وعناصرها .

وفي وسعه أن يعلل الأخلاق للإنسانية جميعاً بنزيرة حصص النوع على معناتها . أو باثريزة الجنسية في نطاقها المخلود بعلاقات الجسد .

وفي وسعه أن يعلل تلك الأخلاق بسبب لقوة والسيادة ، أو بطلب لأمر والدعة ، أو باستحسان الطبيعة وتصوير الإنسان كل ما يحسُّ في حطه بصور الأحلام ومخلوقات الخيال .

ويجوز خلاف الرأي بين الدينيين والمذنبين حين يبحثون في الملكات لفكرة التي تناط بها الأخلاق في كل تعريف من هذه التعريفات هل ساط حياة روحية من مصدر وراء الطبيعة وأدده ، أو هي موصلة فيه بوظائف الحياة الجسدية التي لا فرق بين وبين الحيوان فيها غير فرق الدرجة و« الكيفية » ؟



مثال رأى الماديين يقرب به ريدلى Ridley صاحب كتاب الإنسان في حكم النعم  
 Man The Verdict of Science ويسند فيه إلى آراء جماعة من عباء الكيمياء الحية  
 وعلماء البيولوجى وعمماء الاجتماع ، ويوحزه فى بضعة أسطر يقول « إن  
 الإنسان وإن كان قد أبان عن قوى عقلية نفسية تعلو كثيرا على كل قوة بين عتب  
 كائن حتى سواه لا يزال نوعا حيوانيا له قرابته بالخلائق سفلى وم ير  
 الإغريق لأقدمون داعبا فى فصل الإنسان عن جمهرة الكائنات الحية التى كانوا  
 يشاملونها حوهم ، وقد أدخله أرسطو فى نطاق برده الحوى مع سائر حيوان  
 ولدت ، وجاء ليوس ( ١٧٠٧ - ١٧٧٨ ) بعد قرون عدة فشركتانه عن  
 نظام الطبيعة سنة ( ١٧٣٥ ) وعده فيه نوع الإنسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده فى  
 طبعة الكتاب الأولى بين ذوات الأربع من نقرده والذب الرسيف . وبوهون  
 انفرسى معاصر ليوس . وضع الإنسان فى المملكة الحيوانية واخترا على أن يحتمل  
 سبته مع القرود فى أصل واحد ، وكان هذا أكثر مما يصدق فى عرف السلطة الدينية  
 الفرنسية فحيروه بين التنب وبين تعديل رأيه ، وهو نحييرم يتعرض له ليوس فى اسلاد  
 انسويدة وقد وضع الإنسان وصحة المحكم فى تعريف «الروبوحيين» فجعله بين  
 أعلا الأحياء وهى ذوات الفقاريات ، وحملوه بين هذه فى ذروتها وهى السيريات  
 الديون ، وأعلاها يعد ذئب طبقة الأوائل التى تشمل القرود والسنايس . وهم  
 يقسمون الأوائل أقساما أعلاها القسم لبشرى Homo وهو القسم الذى كان  
 ينتمى إليه بعض الأحياء ممن بقيت آثارهم فى حفائر الطبقات الأرضية ، ولكن  
 الإنسان الحديث وحده هو لدى يصدق عليه اسم البشر الناصق أو الحيوان  
 العارف .

• • •

الماديون من بيولوجيين والروبوحيين والروبوحيين يرون أن الارتجاع بالإنسان  
 إلى دروته المتعددة فى تقسيمات الحيوان كاف لفهم الفرق الكبير بين الأوائل  
 Primates وبين هذه الأوائل وما دوسها من أقسام الفقريات وما دون الفقريات ،  
 ولا حاجة - مع هذا الفارق فى درجة إلى فارق آخر من عالم وراء المدة  
 والضعة ، وهو فارق الروح .

وقد اشتهر في أواسط القرن العشرين علماء بيولوجيون من رجال الدين المسيحيين يسمون كل درجة من درجات هذا التدرج ، ولكنهم يقولون إن العارق لا يهم ، لا عن وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعا بين درجات الأحياء إنما ينتهي إلى التدرج بينها في الاستعداد للعقل والوجدان ، وإن أرفع درجة يرتقي إليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون أعدادا لنبية الحيوانية أن تتلقى ما فوق ذلك من سمات لعقل وتوجد ب

وأشهر انقائيل هذا الرأي الأب بير تيلهارد دي شاردن Pierre Teilhard de chardin البيولوجي المتخصص لدراسة علم الحياة والحفريات وأحد الذين أسهموا في كشف إسان بكين وألقوا بدروس العمدة في المعاهد الكبرى ، ومنها معهد اليسوعيين العلمى بالقاهرة ، وكتبه « ظاهرة الإنسان » The Phenomenon of Man أحد الكتب العمدة الفلسفية التي عدت في أواسط القرن العشرين بعض معالم الطريق في اتجاه المكر حديث ، وقد سمى فيه تقنيات علم الحياة وعم لأحياء حرقا حرقا ثم عَقَّبَ عليها سائلا « إذ كانت قصة حياة لا تعدو أن تكون حركة إلى الوعي ور ، بدب من تركيب الأحهره بعصوية ، «نتيجة اللازمة حيا عند بلوغ التركيب غاية المقارنة بالإنسان أن يمثل هذا الاقتراب في ابتداء ظاهرة الأهمية السيكولوجية وبروع ظاهرة الذكاء ومن ثم يلقى الضوء على « المقارنة الأدمية » نفسها ، لأنها قد نشعر بالخيرة إذ لاحظنا قلة العارق لتشرنحي بين لكائن الشرى وبين من دونه من ابشريات على لرغم من سمو العقل في بعض مظاهره ، فإنه هرق يقل حتى تكاد نتخطاه على الأقل من جانب أصوله ، ولكن أليس هذا معه ما ينبغي أن يستطر ؟ »

ويجملو هذا الرأي بالأمثلة المخصوصة عالم آخر متدين ، هو الأستاذ روس هاريسون الذي يقول في كتابه عن مصير الإنسان : «إننا لا نعرف الموسيقى إذا عرفنا كل دقيقة وجنية من الأعشاب والمعادن ولأوتار التي تدحل في تركيب النور والقيثار ونيان . وبعض علماء الأحياء يرامون تعدية الحيوان ، ويلاحظون أن بعضا من تلك الأشياء تتأثر ببعض الأعدية منتفص أو تزيد لاحظوا أن الفأرة التي يقل

المسجير في غذائها تحمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وإنه خمس منهم أن يلاحظوا هذا ويصلوا منه إلى زيادة حصصه لحيوان من ذلك العناء ، ولكنهم إذا جاوروا ذلك فقالوا إن عاطفة الأمومة هي مقدار معلوم من المسجير فهم مخطئون ، وخطأهم في هذا الرأي كحطاً القائل أن نعمات الموسيقى أخشاب وأوتار .

ويتبدل معنى الاستدلال المنطقي والعلمي . إذن ، هذا التفسير لمذهب التشبه انقش ، ارتقاء الحيوان والتشابه بين كل درجة من درجاته ومادوسها وما فوقها في الاستعداد لأهبة لعقل والوجدان . فلا بد أن يحدث ذلك بلوصول إلى الجواهر الحيوانى الصالح للهوض تعطف الروح والوجدان . ويقلب الأمر على الماديين فيصبح المادى وهو مسئول ، يهرب للمعتصرين عليه من رجال الدين . هذا يكون معيار التقدم رتبة الوعي على درجات تدرج في تركيب البنية العضوية ؟ وكيف يتأتى هذا الانتظام في الأداء وفي النتيجة إذ لم يكن هناك طريق مرسوم لعاية مقدورة ؟ ..

ومن العناء غير الدينيين من قنعت هذه الحجة ببعض الاقنع وواقفت مذهب في اقتباس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا وحى » كما يسمونها في اصطلاحهم لمتفق عليه Religion Without Revelation فقال علم من أعلامهم وهو السير جوليان هكسلى في تقديمه لكتاب مدهرة الإنسان : «إننا معشر بنى آدم نحتوى في أنفسنا كل ما في الأرض من الإمكانيات الهائلة ، وفي مقبور أن نريد ما يتحقق منها على شريطة الإرادة من العلم والخيال » .

وتكاد هذه الأسطر أن تكون نسخة معوية ، من كلمات الختام التى انتهى إليها السير جوليان هكسلى في كتابه « فدى جديدة للحمرة جديدة » ، إذ يقول

« إن صورة الإنسانية المتصورة أعانتى على أن أرى من وجهة البدء على الأقل - أن الدين والعلم قد يتفقان ، وقد هدتني إلى مخارج من العصف والتكبريق لنا أن نطلق عليها اسم الدين ، ولكنها كانت لولا ذلك حقيقة أن تكنت وتترك نسب مميّا . هي بهذه المثابة تعمد كيف يسهم العلم في تقدم البشر . وقد قرر حدى في مقالة عن اللاأدرية كلاماً في هذا الصدد كأنه عنى بدائه عن البهره

فقد : « إن كل إنسان ينبغي أن يعطى مسيلاً للإيمان الذى يؤمن به » وإن عقيدتى  
فى الإيمان بالامكانات الإنسانية وأرجو أن أكون قد وفقت إلى شرح أسسها .

\* \* \*

على أساسا نحترى بأحدث الأقوال التى انتهى إليها علماء المدينين به ، درية لعقل فى  
الحيوان الناطق ، فلا نحسب أنهم قد استطاعوا أن يدعوا له مرة أقل من مرة  
الروح فى ربطها بالحياة أو بالمؤثرات الحيوية على وظائف البنية الإنسانية على  
الخصوص ، وربما كان تعويلهم على دلالة الجهاز العصبى فى الحيوان عامة وفى  
الإنسان خاصة أشد من تعويل العلماء المدينين على دلالة الارتقاء إلى الملكات  
الروحية بمقدار الارتقاء فى التراكيب الجسدية .

والأستاذ بالهوف مشهور بتجاربه الجسدية النفسية يقول : « كلما أحكم كيان  
الجهاز العصبى فى سة الجسم كان أقرب إلى التركيز » وكان أقدر على المزيد من  
التأثير بوظائفه لعب على التوزيع والتنظيم فى أعمال البنية كلها »

وقد أثبت رملاء بالهوف وتلاميذه أن بقية الحياة بعد توقف نصر القلب مرهون  
سلامة الدم الذى يحتفظ سلامته بعد توقف النبض بنحو ست دقائق ، وأن نوعى  
الإنسان له أثره حتى فى تأثير السموم الفائلة .

جاء فى كتاب مسدث اعم ادى طبع فى موسكو سنة ١٩٥٦

« من بعض السموم القوية التسميم مادة البوتاسيوم سيانيد . وهى سريعة  
العمل تقتل على لأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع خلايا لأن الخلايا تحت  
تأثيرها لا تشرب الأكسجين ولا تنفس . وإذا حقت به عروق قطعة ميتة على  
الأثر كأنها أصبحت مصدقة . وقد حقت به اثنا عشرة قطعة كانت متما  
خلال بصع ثوان ، ولكن الست الباقية لم تتأثر كأنها حقت بماء ، وهى الست التى  
حدثت بالأثر المعقم أثناء الحقن<sup>(١)</sup> »

إلا أن سلطان الوعى على الإنسان قد بلغ درجته العليا ، ويمول بالهوف فيها

رواه عنه الكتاب نفسه « عندما بلغ تطور لعلم الحيوان منزله الإنسان مشأب صاففة هامة جدا في حهر النظم العصبية العليا هي الحيوان تتمثل وقائع لعلم على الأعم الأغلب بما يحدثه من امبيات التي تصل الى ملح فتعش التسيه الى حواس لظرو والسمع وسائر حواس الحيوانية ، وهذه أيضا هي المبيات التي تصل اليه عن طريق المؤثرات والأحاسيس والخواص من اعدام الطبيعي أو اعدام الاجتماعى الذى يحيط بها ، ما عدا لمؤثرات التي بفرد ها الإنسان وتودى له وصيفة التسيه لذلك التسيه »

ولا يدعى « للحيوان الناصق » ولا للحيوان ذى الروح مربة أكبر من هذه المربة ، هي تكاد أن تفسر لروح سلطانا على الجسد كسلطان « ابوحا » المعروف عند سائر المهد ، وتكاد أن تجس الأخلاق جميعا مسائل عقلية تملك التأثير الأكبر إن لم نقل التأثير المطلق - في كيون الإنسان وفيها هو أهل له من أهة العقل والوجدان .

## مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ فِي عُلُومِ الْأَحْيَاءِ

إن العلم الطبيعي حذر في تقرير مذهبه وأحكامه ، وأكثر ما يسيحجه نفسه إذ وصل إلى شيء لم يثبت لديه كل الشبوت ، ولم ير من أمانة العلم كتابه وحده ، أن يعمله على أنه ص مرجح وأن موضع الشك فيه قابل للدفع والتوضيح بدليل مستطر تذكر أسباب انتظاره . وكذلك فعل دارون عند إعلانه نظريته في تحول الأنواع .

وإذا وازنا بين حذر العلم في الحكم على الخاص وحده في الحكم على المستقبل المحدود ، فهو في الحكم على المستقبل أحذر وأقرب إلى التردد بل إلى التوقف عن مجرد الظن إلا مشعوعا بالاعتذار . ويرى هذا الاختلاف بين حذره من أحكام الخاص وحذره من أحكام المستقبل فيما قرره عن فعل التطور أمس وفعل التطور عما . فإن علماء النشوء استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الإنسان حسيا وعقلا منذ ألف سنين . ولكن لا نعم أن واحدا منهم أباح نفسه أن يتشأنطور واحد سيحصل غدا لا محالة ، أو نحوون واحد مرجح لا يقبله ترجيح مثله إلى النقص .

وعندهم في هذا التهييب مفهوم . وهو أدنى شيء على أن دلائل التطور الخاص لم تزد عند القائلين به على أن تكون بعض الظنون الرجحة ، ولم تلع عند عالم حدير بصفة العلم أن تكون علم يقين .

عندهم أن العالم يرسم الطريق كما تكلم على الخاص ليس إلا . ولكنه يشي الطريق ويحتشي فيه كلما أنشأ جزءا منه حين يسير إلى المستقبل ، ولا يساوى من يفتح طريقا ومن لا يرهق عمه على رسم طريق .

إن كان بين علماء العصر من يحق به أن يعين رأيا جاريا عن مستقبل تكوين الإنسان كما يتمثله علم الحياة فذلك هو « البيولوجي » الكبير الأستاذ « مداور » Madawar صاحب جائزة نوبل للعلم الطبيعي سنة ١٩٦٠ « وصاحب بحوث العالية في تهيئة جسم الإنسان لقبول لأجسام العربة التي تنرمها خلاياه عن لرعم

من تقسيم الآدميين إلى فصائل وعائلات في تكوين الدم وأنسجه لخلايا . فانه قد  
تبين له من تجارب يضيق بها الحصر أن الفرد الإنساني وحدة لا تتكرر في مكونات  
بدنه . وأن كل حكم على بيته من طريق لتقسيم إلى فصائل وعائلات فهو تقسيم  
قابل لمحضاً عند إجراء التجارب العصبية لنقل الأنسجة ولأعضاء من بية إلى بية

وعد سبيل هذا العالم الكبير أن يبقى محاصرات ريث Reth عن ( سنة ١٩٥٩ )  
فقال إنه لم يكن لسبع به الادعاء أن تبقى هذه المحاضرات بعنوان مستقل الإنسان  
لولا أنه عيود مقترح عليه ، ولكنه على هذا م يعقد بالرأى في مسألة من مسائل  
البحث المقترح ولم يعلن رأياً واحداً قبل أن يرجع في موضوعه زملاءه الثقات في  
مسائل ذلك الموضوع على التخصص ، وقد ذكرهم بأسمائهم في تعهده  
للمحاضرات . وبعد أن ذكر فكره « البيولوجيين » الذين يحسبون أن تعدد الخدج  
الفردية قد يحول دون التوليد لأحرج النسل على نمط مقدور . مضى يقول « إن  
الأمريديعو إلى استساؤل هل يتأني بالإنسان أن يمضي متطور عما كان تطور بالأمس ،  
أو أن هناك أمسا تدعو إلى لظن بأن هذا المتطور قد بلغ أقصى مداه ؟ »  
وطبق الأستاذ يقرب وحوه النظر ويهدد بيها حتى سح سانة محاضراته وهو لم  
يجرم قط بمصير عمود . ، سون أنه رجح بعض المروص ولم يسن أن يذكر أي  
مروص تميط بها الشكوك والاحتمالات ..

قال - مثلاً إن لأحصاءات في بريطانيا العظمى ذلت على تكاثر نسبة  
ما بين المذكور بعد الحروب ، وإن بعضهم غير ذلك بأن الطبيعة تعمل لتعويض  
نقص على عاداتها في كثير من المشاهدات . فهو تفسر لس بالعرب . ولكنه قد  
يصل اليقين به أن هذه الزيادة أيضا قد شوهدت في أم لم تفقد أبنائها في الحرب ولم  
تكن من الألم المقاتنة .

وقاب الأستاذ بين طرائق الاحصاء ، ومن طريقة المقارنة بين سنة وسنة ،  
وهي غير وافية بالمقارنة الدقيقة ، وبين طريقة اختيار طائفة من الرجال ونساء  
وسجيل ما يحدث لهم على مدى الفترات لطوان ، كل عشرين أو ثلاثين سنة ،  
وقال إنها طريقة لم تكن مبسرة الومائل قبل السنين الأخيرة ولكن تيسرت الآن

لانتظام الاحصاء في شتى مظاهر الحياة ، ومن تسجيل نسبة الحسنين وتسجيل معدل انعقاد الزوجية وسر الذكور وسر الانثى عند الزواج ، وتسجيل هذه النسب عند ولادة كل مولود أو مولده ، وهذه الطريقة تعيد ما لا تفده طريقة الأولى عند تعين متوسط الموليد للوفيات ، لأن بين الوقت الذي تحدث فيه أوائل موليد وتبين للقاتلين بالاحصاء هل يريد العدد زيادة الخصوبة العائنية أو لزيادة لوقت المخلود للاحصاء ؟

وتم يتقل العالم البيولوجي بالارتياح عبارة المتشائمين الذين يهتمون من كلمة الاحذر أو هبوط الاستعداد الحيوي ان السبع الأسفل سيحذر حتى ينقرض ، وقال ان عبارة « متحف من التقايع » فترت إذا استطعنا بالعناية أن نحفظ في اليوم بأمان كانوا - - - - - بولا ذلك - - - - - قد أصبحوا أموات قبل عشر سنوات ، فحين كنهما كانت الحال نعيش اليوم ولا نعيش قبل عشر سنوات - كذلك يمكن أن تعصف نازلة من النوازل بالعقائد التي تدوى بعض الأمراض ، فلا يكون مآل ذلك ، لا أن الذين سموتون عدا قد يموتون اليوم بدلا من ذلك

ومن دوعي نصعب البوءة عن المستقل أن التغيرات المحتملة بين أفراد البشر أكثر جدا من التغيرات التي تقع فعلا ، وأن اختلاف اثنين من البشر في الواقع قد يعنى قبل ذلك افترض عشرت من الأفراد مختلفين كذلك الاختلاف أو أبعد وأجنى . ومن أقدم لأسباب المعلومة عند الجينيين Geneticists لاحتتمالات التغيرات المتعددة ما يسمى بقابلية القابضة بين الصفات ، وهي عملية يمكن أن تتم إذا كانت كلتا الصفتين مماثلة للأخرى تمثالا يميل بها إلى الامتزاج ثم إعادة الامتزاج على أشكاب ماثرة مبتدعة . ورى جاء اليوم الذي يستطيع فيه الكييون والطبييون الحيويون أن يحدثوا هذا الامتزاج ، ونحليق هذا أن يدكروا أهمية التحول الضجائي Mutation وما يترتب على إمكان إحداثه من تغيير السسل بالانتخاب الصاعى

والمشاهد من أطوار جرثيم « الكثر » أن لها خاصية عجيبة وهي خاصية الاحتياط لمعالجة الأضرار التي قد تطرأ في المستقبل . وربما وجدت في اناس خاصة كهذه يدب عليها حاجة غريز منهم من الأوثنة والعلل المنتشرة ، وكمون ضرب من المتاعة



يرود حلأيهم الدسة مثل ذلك الاحتياط بقاومة آفات مستقل وقد يدهش  
السامع - بعد كل ما عرف عن الوراثة - أن يعلم أنه لم توجد بعد فكرة  
وادة عن الأمور التي تفعل والأمر التي تجنب تحسين نتائج الحيوان بالانتخاب  
الصناعي

ويؤحد من استطراد العلم البيولوجي في أمثال هذه العومل الحية أن نعم بها  
يفتح آفاقا من فروص التغييرات المحتملة يقصر عنها رسع السوءة والتوقع ، وأن  
الاستعانة بالمعارف المسجدة تمكن الإنسان من معرفة وسائل التحسين في لغيره  
ووسائل تقاء الاخطاط فيها ، ولكن هذه الوسائل لم تصط - بعد - على  
يقين من نتائجها .

ولكن ترقية النسل لا تعتمد كلها على صط هذه الوسائل الجيبة ، لأن  
هذه وسائل التفكير أو وسائل الخصائص التي قد تستقل بالوراثة من الدماغ .  
قال الأستاذ مداوار في محاضراته الأخيرة : « إن في هذه محاضرة لأخيرة  
سأبحث في الكائنات البشرية عن وسيلة جديدة - غير الوسيلة الحية  
للوراثة والتصور ممية على خصائص وحركات مصدرها الدماغ

« وإن وجود هذه الوسيلة أمر تعرفونه جيد المعرفة . فلم يكن البيولوجيون هم  
أول من أفصى إلى سراع إلى التصديق بأن لكائنات بشرية ذات أدمغة ، وأن  
الأدمغة تحدث فروقا شتى ، وأن الإنسان قادر على أن يؤثر في الأعقاب الآتية  
بوسيلة غير الوسيلة الحية . وإن كثيرا مما قرأت في أقول البيولوجيين يلوح عليه أنه  
لا يفيد ما شئ يريد على ما ذكرت لكم . وإني لأحس أن البيولوجي مطلب بأن  
يسهم بتصيب يساعد على فهم لأصول البعيدة التي تفرع عيب الأخلاق وصروب  
اسسوك ، وهو ما أحاوله الآن . ولا بد أن تأتي هذه المحاولة مستندة إلى تفكير  
الصلب لا إلى التفكير «الناعم» .. وأعني بذلك تفكير يعرف له حير واقع  
وتدرك له تفصيلات ينة ، مقبلا للتفكير لدى يجد منفسه في لكلمات الموقفة  
والعبارات المصححة الشعرية

« وأما في أغارب الوصوح ليس إدا عرت عن ذلك مثال محسوس ، وأسألکم  
أن تعبدوا على الذكر ذلك المارق إهام بين الصندوق العارف واجهار الحاكی  
« خرامقون » .

« هانصندوق العزف جهاز يحتوي فسا أو أكثر من قارب من قوالب الخرامقون  
يعيد لسمع كل ما أودعه عند لمس زر معلوم ، وسمى لمس ذلك الزر بالبعث أو  
المخرض .. وهو باعث مقصور على القالب الذي يؤدي إلى سماعه ، فهو مؤثر واحد  
يأتي بأمر واحد بينهما هذه العلاقة المتبادلة . وسمى باعث الصندوق بلمس الزر  
أى زر إلى إحداث نعمة موسيقية ، ولكننى إذا احترت ررا معينا  
فدبعث هنا بدعوه إلى إحداث نعمة دون سائر النعمت الموسيقية ، والتوجيهات  
الموسيقية فى هذه الخدمة جزء من الصندوق وليس جزءا من البيئة محيطه به وكل  
ذلك راجع إلى تركيب الصندوق فليس يصح على الزر توجيهها لمصندوق فى أداء  
نعماته الموسيقية

« .. ولأن تقابلون بين هذا وبين عمل الخرامقون أوبة أداة أخرى تؤدي بنا  
لنعمت الموسيقية :

إذ لدى قوالب موسيقية أقوم بتحرير بعض النماذج وأضع القالب على  
الخرامقون والقالب متقون إليه من البيئة محيطه . فذلك باعث كباعث الصندوق  
العارف إلى أدائه الأنعام الموسيقية ، ولكنه يضيف إلى انبعاث هناك شيئا أكثر من  
ذلك ، وهو الخطوط المرسومة التي تمر بها لإبرة فتضئ منها الأنعام المؤداة ، وليس  
لدى الخرامقون مصدر لتوجيهات الموسيقية وإنما هو القالب الذى جاء إلى الخرامقون  
من البيئة الخارجية ، فكانت علاقته به - إذن - علاقة تعميمية ، لأننى  
تمنى من المعانى قد علمته كيف يؤدي انتم المسموع

« ونحن فى الحالتين صنعنا الصندوق وصنعنا خرامقون وأعدنا كلاهما  
للعمل الذى يؤديه ، ولكن هذه الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر فى مفرى الاختلاف بين  
عمل هذه الأداة وعمل تلك . فليذكر هذا الاختلاف فيما يلى من المقارنات  
« .. منذ عشر سنوات اتجه ليولوجيون إلى انهم بأن الأجهزة الخي العليا أشبه

بالصندوق العزف منها بالحرايعون ، وأن كل ما كنا نحسبه من قبل حركات تعليمية هو في الواقع حركات تنبئية ليس إلا . أي أن تحريك لكائن الحي يحدث شيء هو نتيجة تركيبه وليس - كما كان مطبوعا - نتيجة شيء من الخدوش فليست الآثار المستفزة في الجهاز الحي خطوط مرسومة على قالب يديره ذلك الجهاز ، ولكنها آثار جينية مودعة في النصبغيات وحوامض الخلايا .  
 « واسمحوا لي أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة :

« فاقدم لأمثلة وأشيعها مثل لتعبير الذي يعبري جمهورا من الناس عرصى له التطور ، فكيف نصف البواعث التي تفعل فعل التطور في الأجهزة الحية ؟ إن النظرية اللاماركية التي تقول بوراثة الصفات المكتسبة ، هي على أعمها تنظر إلى البواعث التعليمية وتعي أن البيئة على نحو من الأنحاء قادرة على إعطاء تأثيرات تعليمية للأجهزة الحية ، وإن هذه التأثيرات إذا سررت في البيئة سرينا حسنا أمكن أن تنتقل بالوراثة إلى أعقابها . فالحديد الذي طالما صرب به المثل لتعزير هذه الملاحظة ، يستمد قوة في دراعيه من طرف الحديد فتؤثر هذه القوة في الخلايا التي تنشئ بذوره بسهولة وتفتقل من ثم إلى أمثاته ، فيولد هؤلاء الأبناء وهمم استعداد لتربية الأفرع القوية . ولست أفحص في مناقشة التجارب التي تكررت لامتحان العوامل اللاماركية . وحسبي أن أجهها فأقول إنها جميعا أسفرت عن نتائج غير لاماركية ، ودلت على مؤثرات تنبئية وليست تعليمية .

« ومثل آخر من الأمثلة انشائه هو مثل البكتريا إذا أعطيت طعاما غير طعامها المألوف أو تعرضت لعقار مصر تقومها ، فإنها في هذه الحالة قد توفو بين قوامها وبين الطعام الجديد أو تزيل ضرر العقار وتلعي معونه . وقد سميت هذه العملية رمنا باسم تدريب البكتريا على عتار أنها عملية قدمت لبكتريا إلى تعلم طريقة جديدة لتوليد الخثر من طعامها ، ولكنها سمحة لم تلت طويلا حتى بين حطوها وسين أن هذه العملية وسيلة تنبئية وليست «بوسيلة استيعابية» فليس في وضع لبكتريا ب شيء حميرة غير التي هي معطورة على «شائها» ، وكل ما حدث عند تعبير انطعامه به الاستعداد الذي لم يكن له منه قبل ذلك ، وهو استعداد كام في التركيب وليس «التعليم المستفاد من فعل الطعام أو العقار

و يصدق هذا على تطور الحيوانات - فقد كثر الخلد زمان بين أنصار القول بالتنبيه وأنصار القول بالتعقيم ، إذ كان الأولون يرون أن كل تطور غامض هو مشروط كان مطرباً هناك ، وكان المتطرفون منهم - وطمناً تعرضوا للسخرية يرون أن بذرة السن إنما هي إنسان صغير أما الآخرون فمعتد بهم أن العورس التي تعمل في تكوين الحبل إنما هي بواعث تعرض له في حوله وليس الحقيقة وسط بين هذين الطرفين ، فالعوامل الخمسة تتم لأنها كاملة هناك ولكن مستبعدة رهن بالعوامل الخارجية عـ

١ إلى نحو ستين كـ يشعر أن صرا من التوفيق في أجهزة الحيوانات العليا بفعل البيئة على اعتبارها موجهها أو معيها ، حتى الحور الذي نشاهده عند تلقح الأنسجة بمادة خارجية ، يؤدي إلى إنشاء النية لددة بروتينية خاصة . أعجب ما يكون صمها أن تحول دون تلك المادة والأصرار بالنسبة ، مما يكون له أثره في الوقاية من عدوى الأمراض .

ومع البواذر التي توحى بأن هذه العملية تعليمية ، أحد كثيرون من البيولوجيين يشكرون في ذلك ويعتقدون أنها لا تعدو أن تكون نسيجية في حوهرها ويعود إلى انصتدوق المعارف مرة أخرى .

٢ وبعد .. فأى ظفر يتاح لنا أن أمكن لينة أن تتلقى التعلم من البيئة وأن تجعل هذه البيئة قادرة على أن تعلمها ولم يكن نصارى قدرتها أن تنبه ما فيها ؟ .. ربما قال لنا زائر قديم إلى هذا الكون من كون غريب عنه قبل بضعة ملايين من السنين ، نعم إنه لظفر عظيم ، وإننى لألح سره وأهيم أن هذا السر يحل مسألة التوفيق والموافقة بين الحى والبيئة ، ونهمل الكائنات الحية مهية لتسر والتطور على صورة أولى وأسرع من صورة التطور بفعل الانتخاب الطبيعي ، لولا أنها صعبة جدا وأنها ليست مما يستطيع ..

٣ إلا أنكم تعلمون أنها استطاعت ، وأن هالك جهازا قديما لأن يتلقى التعليمات من الخارج وهو جهاز اندماخ  
٤ و بنا لنهم القليل من أسرار هذه المسألة ، وهو ما نفهم منه مقدور تعقده

« سنذكر وظائفها .. فإن تطور الدماغ قد كان آية رائعة في هذا الوجود ، وهو  
ولا ريب - أعظم الآيات بعد آية الحياة نفسها .

« على أنى أض أن الدماغ إنما يش في مبدأ أمره كدرية للتنبه ، ومن أسلوب  
انغريزي إنما هو ذلك السموك الذي تستجيب به أسيه لتنبه المؤثرات الخارجية ،  
إذا لمحت دجاجة هرمونات الذكر أحدث هذه الدجاجة في سموك كسلوك الذكر  
لم يكن أصله بعيدا من تكوينها .

« ولكن وظائف الدماغ لعبت تستجيب لمؤثرات التعسبية فتصنع نتج ...

« . . . ولا يقع الأمر عند هذا الحد بل يسرى من جبل إلى جبل كما يسرى  
لخصومات المتسلطة التي تبدأ بكتابة خطاب إلى أحد الناس ، ونسأله أن يبعث به  
إلى غيره ويوصي ذلك الغير بأن يبعث به كذلك إلى آخر وآخر إلى غاية الشوط  
الميسور ، فيتعلم الأب ويعلم به كيف يعلم حفيده ومن حفيده وهكذا . . . على  
مدى الأجيال ..

« ومن المهم جدا أن نثير بين أربعة أدوار في تطور الدماغ : أولا الجهار  
المعنى وقد نشأ لتبني البنية ثم دور الدماغ وفيه تتلقى لكائنات حية التعليم من  
الخارج ، ثم دور المورثة من طريق غير الطرق الحسية يأتي من قدرة الدماغ الدقيق  
التركيب على شيء أكثر من تلقى التعليم وهو تسميته إلى آخري . وإنه لعدم خاص  
بالنوع الإنساني لعله قام بعمله أمام مبد خمسمائة ألف سنة . أما الدور الرابع فهو  
شديد الشبه بالدور المتقدم ولكنه لا يماثله تمام المائئة . ومعنى به دور التطور لدى  
يشمل الجماعة كلها وقد تضاعف عمله من مائتي مرة .

وسأب بعد هذا ما الذي يستعده في تقدم ؟ نقول إن الاعتد بالمشكلات خطر  
لأنه يخلص من أثر لاحتلافات المشاهدة بين تطور الفرد وتطور الجماعة لا يجعلها  
عملية واحدة في مجرى الحوادث ولا في عوقها فصناعة الحدوث لا شك ،  
ولكن وراثتها من طريق الناملات والصيغيات أو ما نسميه بالطرق الحسية  
غير مستطاعة وفائدة التغير بين التطور الفردي وتطور الجماعة أن يبعد عن  
مبدأ فكره القواين الطبيعية التي تعمل في الحالتين على سبه التعبيرات الجينية ، أو

العكرة التي نقول لنا إن الجماعة لابد أن توجد وأن تموت كما يتعاقب الموت والولادة  
على الكائنات الحية ، أو فكرية التي يوحى إليها ترك الجهد في تحسين جماعة اعتمادا  
على أن الطبيعة أحقر وأدنى

\* \* \*

و نحن إذن نستطيع أن نهدد الطبيعة ، ولكن استطاعتنا هذه مرهونة بمقدار  
ما نبحث من وسائل لعوض على أسرارها وحجابها ومثابرتها على زيادة محصولنا من  
العلم مما يجري فيها . ولست أقول إن الإنسان مدفوع بغريزة محضه إلى الكشف  
ولاستطلاع وإبه مسحر أبد في طلب الحقيقة . فإن الحيوان أيضا مرود بما يمكن  
أن يسمى على الاحتمال حبا للتطبع أو التحسس ، ولكن هذه غريزة ودية بلغت  
عاليها من الإحكام والقوة لا يفيدنا ولا يسعى أن يكون مدفوعين دفعا إلى الاستطلاع ،  
وإن أولئك الذين يستطعون بما قوايهم عن مقاصد الطبيعة يفارون حدود الخطر  
والوبال . وما عيب إلا أن نذكر عاقبة الدعوى التي زعم أصحابها أن الإنسان مرود  
أند نزعة نصد ودفند ونحن نقابل بينا وبين أنواع الحيوانات الأخرى ،  
فمرى على لتحقيق أن الفرق بيننا وبينها في هذه الخصلة هو أن الأحرار التي تدق  
له دقات انتبه إنما هي كأجراس مائتة تجر الألب معلقة بأعناقها فلا لوم على  
أحد سوانا إذا لم نسمع منها ما يرضينا .

\* \* \*

هذه خلاصة مقتضاة من كلام لعالم البيوبوحي اقتباسا تحريفا به تصوير معناه وم  
ستزم حروف مصوصه . وبجمل هد المعنى أن مستغل الإنسان الطبيعي مستكن في  
كفيه وأنه يملك وسائل التهذيب الاجتماعي ولكنه لا يقدر على إحداث أثر لم تكن  
موجداته مطوية في استعداده . وإن الأجراس التي تدق له دقات الخطر على حياته  
الجمعية أو الفردية هي نفسها جره من تلك الحياة . وكذلك العلاج الذي يحتل به  
على الخطر بعد الانتبه إليه إنما هو من عقار أرضه ووصفات طه .

دواؤك منك وما تشعر ودؤك منك وما تفكر

\* \* \*

وقبل الأستاذ مداوار بحمس عشرة سنة ، عند نهاية حرب العظمى تقدم للاجاة على هذا السؤال عن مستقبل الإنسان عالم ييولوجى من المؤمنين بالشعور والتطور ، يصارع مداوار فى منزلته العلمية وشهرته العالمية فكتب عن القدر الإنسانى Human Destiny سلسلة من بحوث الحديثة على مسج غير متبع ومبه المتأخر . لأنه يفرص عادة مرسومة للتطور ، ويرد مقاصده جميعا على غاية إلهية تلخص حكمتها الخادية فى أنها « تريد » ولكنها تعلم الخلائق أن تريد لنفسها وأن ترقى بالبرودة على حسب جهودهم ، مع الهدية التى تهب ولكنها لا تهب إلا بكى تعيينها بالإهام على أن تعمل حسبها وتسدك سبيلها

ومؤلف كتاب القدر الإنسانى هو العالم البيولوجى الخيل بيكوت دى نوى De Nour الذى يقول ان استمرار اشياء والقوى بالمصادفة معارقه لا يعقل ، وهو ينسب مخارى لشيء فى الكون بخدود البحيرة التى تنصب من فوق الخيل على مستقره فى الأودية ، تنمر بالصخور والرمال وتلتقى أو تفرق وتعمل معها ألوانا من الرواسب والطوى تحالف يسبب آخر الأمر حتى كأنها يسبح لم تصدر من أصل واحد ولم تخرج على سنة واحدة ، وانواقع أنها ليست كذلك وأنها فى أصلها من بحيرة واحدة وفى حركتها خاصة لقوة واحدة هى قوة الخادية

وعند « دى نوى » أن نظرية لامارك عن لتويف بين البية والبيئة ، ونظرية دارون عن الانتحاب الطبيعى ، ونظرية التحول الفجائى فى رأى يودين دى نوى Nudin De Vries - كتب صالحة للمساهمة فى تفسير عوامل الشعور والتطور .

قال « وبعد مرة أخرى أن التطور لن يكون مفهوم إلا إذا سمنا أنه خاضع لعاية ، وأنها غاية بعيدة معدودة »

ثم حتم بحوته قائلا : « إن بعضهم قد يرى أننا لا نزال على مسافة بعيدة من اليوم الذى يصبح فيه الإنسان وقد تطور التطور الذى يجعله أهلا لأن يشعر بصيره ، ولا يكون كل حقه فى المعاملة أن يعامل كما يعامل بطرس القاصر ، وربما صح هذا ولكنه - إذا صح كان حقيقا أن يصبح سببا للاتجاه بجهوده إلى تلك الغاية »

١ وإن الإنسان المتصور قد بلغ حالة من نمو الضمير يسره أن يوضع أفق النظر وأن يلمح أسرار العضم الذي يضطجع به في انحرار عايات التطور ، ليس الإنسان كذلك الخيون الأعشى الذي يعمل في أعماق اسحر ولا يدري أنه يبني عمله حريرة مرحابة سوف تعمر بالكائنات التي هي أصلح منه وأعلى . لأن الإنسان يعمل وهو يعلم أنه رائد للسلسلة المتينة التي تسكون على وسحه من الوحوش وليلة سميه وجهده . وعلى كل إنسان أن يذكر أن القانون قد كان ، وسيبقى كما كان ، أن يواصل وأن الصال لم يهدأ لأنه تحول من ميدان امدى إلى ميدان لروح . وعليه ألا يسي أن كرامته باعتباره كائن آدميا ، يسمي أن تصدر من جهده في تحرير نفسه . وأن يتفاد في ذلك جهد لأعرق انواع من فراره وجدانه . ولا يسي أبدا أن بشرارة لإخيه كامة في تلك القراره ، في قراراته دون غيره ، وأنه هو حر قادر على أن يهملها وأن يفتنه قدرته على أن يقترب من الله وأن يعرب عن عبرته على العمل مع الله والعمل في سبيل الله »

• • •

ولقد آن تطور الإنسان عند غير نيولوجيين إلى تصور الإنسان الصانع وقيام الصناعة الكبرى مقدم الصناعات الصغيرة التي بدأت منذ مئات القرون ، فجعلت الإنسان سيد الخليفة حين جعله قادر على العمل بيده وخنراع الآلة المصنوعة لانجاز عمله . وسمعت الصناعة الكبرى بأيدى الجميع البشرية فعل الاداة الحجرية قبل مئات لقرون بيد الإنسان لأول . ولم تكن له قدرة على خيون الأعجم غير تلك الاداة .

ولا محال أن أحدا عبر عن هذا الرأي تعبرا أدنى إلى انهم من تعبير الأستاذ رسل هاريسون في كتابه « ماذا يكون الإنسان » فلهذا برتالعة « بابن » الحديثة لفه البلية العظيمة بين المروض مصرعة ومروض لمهمة والمقدمات من هذا والمعاصات من هناك ، ووضع أمل انتظور حيث يسمي أن يوضع إل كـ له موضع على الإطلاق ، وذلك هو موضعه في « لشخصية الإنسانية »

فلا مستقل للإنسان إن لم يكن مستقلا شخصيته لكاملة ، ولا تطور هذه



لشخصية إن لم تكن شخصية « ذات جواب » ولم تكن جوانب براء من النفس  
واحد .

إن لشخصية الإنسانية عاطفة ، وعقل ، وصميم ، وليست مجرد أعصاب  
وروماتف وخلايا وأعصاب . ومعنى تطور الإنسان في الدهن أن تتم له هذه  
الشخصية بعد ما بينت له بذورها مع أطواره الدامية . وليس في الواقع ما يح  
« لشخصية الإنسانية » أن تتحقق كما تحققت في الدهن . فكرة قابلة لتتمام

## عَوْدٌ عَلَى بَدْءِ

بعد هذا لشوط في عرض المذاهب والآراء عن الإنسان سأل على ثقة من  
الجواب :

هل صحيح أن القرآن يلقي بالإنسان عربيا منقطع في انفرق العشرين ؟

والجواب الذي لا تردد فيه ، أن القرآن - على النقيض من ذلك -  
يصنع الإنسان في موضعه الذي يتطلبه ، فلا تسعده عقدة أخرى أصح له  
وأصلح من عقيدة القرآن ، لأن عصر العائلات لعالمية لا يتطلب « مرصدا » أصح  
وأصلح من الإنسان الذي يؤمن بالأسرة الإنسانية ، ويستكر أدب طين العصبية  
ومحارح العصرية يعترف بفصل واحد متفق عليه في كل أرض وبين كل عشيرة  
أدمة - وهو فصل الأحسان في العمل وحساب الإساءة . وليس لهذا العصر حق  
على سببه أصح وأصلح من حق الشعور بالمسؤولية والنهوض بأمانة التكليف  
والاحتكام إلى العقل في كل ما يسعه العقل ، ثم الطمأنينة الصمير إلى الخير فيما خفى  
عليه من شؤون العباد المجهول ، ولا بد في كل عصر حديث أو قديم من عيب مجهول  
إن القرآن يعطى لفرق العشرين إنسانه الذي ليس من إنسان أصح منه وأصلح  
زمنه ، فهذا آمن هذا الإنسان بالله وبشيوة فليس أصح ولا أصلح لعصر الوحدة  
الإنسانية من الإيمان برب واحد للعالمين ، وبشيوة تختم البهائم . بعد الإيمان بهذا  
الإله الواحد ، لتسلمه من عقننه وحسمه ، وسألك عن إصلاح نفسه وإصلاح دنياء  
بما يدعو إليه قوام الروح والحمد وطب الحياة في الدب والآخرة

وإدراك هذا هو إنسان القرآن بحرفه ومعناه ، فلا حاجة للمغالاة المتصنف في  
حظ كبير من الترويج لينظر من على أن أولئك المتعاملين المتفرقين .. أولئك الذين  
يرغمون أنهم قابلوا بين العقائد ، فحرف هو منها بمقتضى الرأي وهذا هم معصم الرأي  
هو أن القرآن نسخة مكررة بل مشوهة - من هذه الديانة أو تلك الديانة ،

وأما لم يحدث بعد هذا في عام لروح وعالم لعقيدة وهو الذي هدى النعم في أمر  
 الإله وفي أمر لسوء وفي أمر الإنسان إلى هذا صبح لمين وما من بقية في لبات  
 العقيدة بعد هذا الحبيب الذنم في أمر الحقيقة الإلهية وأمر الرسالة وهداية ، وأمر  
 الكائن حتى لمير بين مخلوقات له أجمعين : وهو هذا الإنسان الذي تحاطه  
 الأديان ..

• • •

وقد رأينا مدى الموافقة بين عدد من حكماء وآيات القرآن في كثير مما عرصاه أو  
 أشرا إليه فيما تقدم وقد يرى - أهم من ذلك أن آيات القرآن  
 تصح للعقل الإنساني كل طريق من طرق البحث والتأمل ، فلا تصفه عن طريق  
 قط يترب منه معرفة نافعة توافق معارفه الشائعة أو تباقيها ، فمن طريق يسسكه  
 الباحث الصديق هو طريق معتق أصمه بحكم من أحكام القرآن ، إلا أن يكون  
 لطريق الذي لا يفتح يوم دين يدعو إلى الله وهو طريق الإلحاد

فما تقدم من شروح حكماء الإسلام ما هو أعجب من فروص الشبنيين بعد  
 القرن التاسع عشر عن الأحياء ودرجات من لهجية إلى نقر إلى الإنسان ،  
 وشبنيين مهذنين آراء قد يستعملون تأييدها لو شاءوا من  
 آيات قرآنية فسرهما بعضا تفسيراً يتخذه القائلون تنازع البقاء وبقاء الأصح وتنازع  
 الأطوار :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾

( سورة البقرة آية ٢٥١ )

﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ حُجَاءً وَأَمَّا مَا يَمْسُحُ النَّاسُ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ ﴾

( سورة الرعد آية ١٧ )

( سورة نوح آية ١٧ )

﴿ وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا ﴾

فهل من الواجب على المؤمن بقرآن أن يتنسى ما تأسد لأصحاب  
 « لطريات » والفروص في كل عصر بظهور فيه ؟ نقول « كلا ولا ريب » لأن  
 قد ثبت كتبها أو بعضها ، وقد يطرأ عليها نقص أو لتعديل بين جيل وجيل ، ولكن  
 نقر أن يعمل عمل الدين الصالح بما صبح للعمل أن ينسى حقيقة مع كل فرص من  
 الفروص وتركه أن ينسى ما إلى هدية شوصه مستولاً عن سبيحة عمله وعما يفيد ولا

بعد من جهوده ومحاولاته ، فليس من عمل الدين أن يتعقب هذه القروض والنظريات في معرض الجدل لتأييد تفسير أو حد لآن تأويل ، وحسه أنه يملئ للعقل في عمقه ولا يصده عن سبيله ، فهذا هو الواقع المنطوق بين العقدة والبحث وبين الإيمان والتفكير .

مردأ أخطأ من يقحم القرآن في تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فتنه في خطأ من يقحم القرآن في تحرئها وهي بين نفس والرحمان ، وبين الأحد والرد ، في انتظار البرهان الحاسم من بيانات العقل أو مشاهدات العين .

وقد أخطأ هذا لخطأ جهلاء الدين والعلم الذين حرّموا القول بدوران لأرض ، وهو ثبت من وجودهم على ظهوره ، وأخطأ مثلهم من حرّموا القول بجرائم الويه وهي بـ فيها تبين بعد ذلك - إحدى حقائق العين .

ومذهب التطور - حاصبه في يتعن التحول الأموع لم يثبت بالدليل القاطع ، لأن أنصاره م يدكرو حتى لأن حيوانا واحدا تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتحاب الطبيعي . أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصالح . ولكن بطلان القول بهذا الانتحاب لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجهه ، وليس في القرآن ما يوجب عين أن نقول ببطلان الانتحاب لطبيعي ، لأن خلق الإنسان من طين لا يثنى التحول إلى غير الطين ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب ، وإلما نعم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من طين .

﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (سورة السجده آية ٨)

وفي آية أخرى : « مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ » فلا اختلاف بين هذا وبين التحول الذي يشته - إذ ثبت - على وجه من الوجوه .

ومذهب المشو - مع سائر العلوم الحديثة - يقول لنا نحن المستقبل البعيد أصعاف ما قابله لنا عن الماضي البعيد : من يتطور الإنسان في المستقبل مع قوانين الوراثة العلمية ولا يتطور ؟ ومن يعرف انعماء مسلكه ؟ طريق التطور أو لا يعمرن ؟

من رجع إلى القرآن ليحلم حكمه في التطور المقبل وجده على العهد به يحل للعقل ولا يصده عن طريق يرجى منه النفاذ إلى علم مجهول . وفيما تقدم كلام نفلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين التوريث ، تلقت إليه فنعلم أن قوانين « التاسلات والصبغات » في الأرحام لم تنبهم بخير يهدي إلى مصير معلوم ، وأثبت ما عندهم من نيا أن القد كله مرهون بحيرات العقل والمشيئة والإيمان ...

فالذي يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل بالنظر إلى ما كان معروفا من ذلك قبل مائة سنة ، ولكنهم - - - كثير أو قل - لا ينفعهم في تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو اللقاح في ظلمات الأرحام ، وإنما ينفعهم أن يحسنوا هداية « الإنسانية » إلى خير ما تستطيعه العقول المهيضة إذا صدقت النية على حب الخير ، وأجمعت العزم على استخلاص القدرة المختارة بالتعليم والإرشاد ، وجعلت مسألة التقدم وه بقاء الأصلح « مسألة فهم واعتقاد أدنى إلى البلاغ من لقاح الأصلاب والأرحام .

ونحال أن القرن العشرين لم يكن في غنى عن هذه الهداية من علماء النشوء . ولكنها الهداية التي تعلمها من القرآن من تعلم ( أن صلاح الإنسان فكر وأمانة وإيمان ) (وأن الأرض يرثها عبادي الصالحون )

ونعبد ما كلمات موجزة في ختام هذه الصفات عن الإنسان في عقيدة القرآن وفي عقائد الأقدمين والمحدثين :

إن القرن العشرين لم يضع الإنسان في موضع أكرم له وأصدق في وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثله من أبناء آدم وحواء: موضعه بين خلائق الأرض والسماء أنه المخلوق المميز الذي يهتدى بالعقل فيما علم وبالإيمان فيما يحفى عليه .

وموضعه بين آدم وحواء أنهم الخوة من عشيرة واحدة : أكرمها من كرم بما يعمل من حسن ويحجب من سوء . وأفضلها من له فضل بما كسبه وما اتقاه . لا يدان بعمل غيره ولا يتجوز من وزره بخير عمله :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْصَلُونَ عَنْ عَذَابِكُمْ

بِمَعْسَلِكُمْ ﴾ صدق الله العظيم

(سورة البقرة آية ١٥١)



## فهرس

صفحة

تمهيد ..... ٤

### الكتاب الأول : الإنسان في القرآن

الخلق المسؤل .....	١٠
الكائن المكلف .....	١٦
روح وجسد .....	٢٣
النفس .....	٢٧
الأمانة .....	٣٢
التكليف والحرية .....	٣٩
أمره واحدة .....	٤٥
آدم .....	٥٢

### الكتاب الثاني : الإنسان في مذهب العلم والفكر

عمر الإنسان .....	٥٦
الإنسان ومذهب التطور .....	٦٥
التطور قبل مذهب التطور .....	٧٧
أثر مذهب النشوء في الغرب .....	٨٥
مذهب التطور في الشرق العربي .....	٩٢
الدين ومذهب دارون .....	١١٦
سلسلة الخلق العظمى .....	١٢٢
الإنسان في علم الحيوان ولى علوم الأجناس البشرية .....	١٣٠
الإنسان في علوم النفس والأخلاق .....	١٤١
مستقبل الإنسان في علوم الأحياء .....	١٤٨
عود على بدء .....	١٦٠

# مؤلفات عملاق الأدب العربي

الكتاب الكبير

## عباس محمود العقاد

- |  |                                     |   |
|--|-------------------------------------|---|
| ١ - الله                               | ٢٧ - سارة                           | ٥٢ - يوميات (الجزء الأول)                 |
| ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء               | ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية            | ٥٣ - يوميات (الجزء الثاني)                |
| ٣ - مطلع النور أو مرقع البيت العمادي   | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين       | ٥٤ - حلم الحلود والقيود                   |
| ٤ - حبقية محمد ﷺ                       | ٣٠ - ما يقال عن الإسلام             | ٥٥ - مع عامل الجزيرة العربية              |
| ٥ - حبقية عمر                          | ٣١ - حقائق الإسلام والتأويل خصوصاً  | ٥٦ - مرقع ولغايا في الأدب والسبابة        |
| ٦ - حبقية الإمام علي بن أبي طالب       | ٣٢ - تفكير فريضة إسلامية            | ٥٧ - دراسات في الفلسف الأدبية والاجتماعية |
| ٧ - حبقية علق                          | ٣٣ - فلسفة القرائة                  | ٥٨ - آراء في الأدب والفنون                |
| ٨ - حوار المسيح                        | ٣٤ - فكرة قرآنية في الإسلام         | ٥٩ - بحوث عن اللغة والأص                  |
| ٩ - ذو القرنين حبلان بين صفات          | ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية | ٦٠ - بحوث عن اللغة والأص                  |
| ١٠ - عمرو بن قحاص                      | ٣٦ - ثقافة العربية                  | ٦١ - عناصر في الفن والفص                  |
| ١١ - حسانية من أبي سفيان               | ٣٧ - لغة الشجرة                     | ٦٢ - عين وقرن وفلسة                       |
| ١٢ - داعي السماء بلال بن رباح          | ٣٨ - شعراء مصر ويثقيم               | ٦٣ - فنون وشجون                           |
| ١٣ - أبو الشهباء الحسين بن علي         | ٣٩ - أشعار سجنات في اللغة والأدب    | ٦٤ - قيم ومعاني                           |
| ١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون          | ٤٠ - حياة قلم                       | ٦٥ - المديون في الأدب والفن               |
| ١٥ - طقة الشجرة                        | ٤١ - خلاصة أيومية والتفكير          | ٦٦ - عبد القلم                            |
| ١٦ - يلبس                              | ٤٢ - مذهب ذوي العافيت               | ٦٧ - رعد وسعد                             |
| ١٧ - جملة الفاضل المصنك                | ٤٣ - لا شوح ولا لعمار               | ٦٨ - ديوان يقطعة الصالح                   |
| ١٨ - أبو نواس                          | ٤٤ - الشيوعية والإنسانية            | ٦٩ - ديوان وهج نظيرية                     |
| ١٩ - الإنساق في القرآن                 | ٤٥ - الصهيونية العالمية             | ٧٠ - ديوان تشيع الأصل                     |
| ٢٠ - المرأة في القرآن                  | ٤٦ - لسوان                          | ٧١ - ديوان وحى الأرمين                    |
| ٢١ - عبرى الإصلاح ونظم الإمام محمد حيد | ٤٧ - لا                             | ٧٢ - ديوان حنية الكروال                   |
| ٢٢ - سعد زغلول وديمقراطية              | ٤٨ - حبقية العليق                   | ٧٣ - ديوان حاور سبل                       |
| ٢٣ - روح عظيم لهاذا غلدي               | ٤٩ - لصيغة ريتا العليق              | ٧٤ - ديوان أحاسير مغرب                    |
| ٢٤ - خيلار حسن الكواكبي                | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية     | ٧٥ - ديوان بعد الأحاسير                   |
| ٢٥ - رجعة أرس لملاء                    | ٥١ - مجموع الأحياء                  | ٧٦ - عرائس وشياطين                        |
| ٢٦ - ورجل حرفهم                        | ٥٢ - الحكيم المطلق                  | ٧٧ - ديوان لشجون الليل                    |
|  |                                     | ٧٨ - ديوان من قوازين                      |
|  |                                     | ٧٩ - قطر في الميزان                       |
|  |                                     | ٨٠ - أقنوع الشعب                          |
|  |                                     | ٨١ - لقين العشيون ما كان وما سيكون        |
|  |                                     | ٨٢ - النظرية والأديان                     |

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)  
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع [www.enahda.com](http://www.enahda.com)

